عين الرب
مصطفى جمال

إهداء

لا أجدُ معنى لرثاء أحد ما دام حيًّا، فقد فهمتُ أن كلمات الوداع تُقال عن الراحلين إلى الأبد.

وأنتِ لم ترحلي قط..

بل ستظل روحكِ هائمةً تشهد انتصاراتي الضئيلة وهزائمي المتوالية..

لِذا، دعيني أهدي إليكِ هذا العمل، الذي تمنيتِ قراءته في أجلٍ قريب، ولكن للقدر رأي آخر.

إلى الأديبة والإعلامية

إلى الإنسانة

"شيماء فرح"

إهداء ثانٍ

إلى ذاك العزيز، رب العمل بالأمس، وصديق اليوم، ووالد المستقبل.

مَن يرى فيَّ ما لا أراه في نفسي، ذاك الذي يحبني بقدرٍ بالغ، وأنا لا أملك كلماتٍ تكفي أن أبادله ذات الشعور.

إلى "محمد نبيه"

"كُنا بخير لولا الآخرون"

يناير 1942

5:00 مساءً

منزل "ماريتشا ستيفن"

زحام الأنفاس يمزق الهواء بالداخل، المنزل يتكدس بالزوار من الأقارب وبعض الجيران مع غرباء لم يلحظ أحد حضورهم، كآبة تغلف الحضور بستائر تنسدل على قلوبهم، ما بين بذلات سوداء داكنة تغطي أسفلها جذوع رجال ذات قوام ومقاس مختلف التكوين، مع بضع معاطف صوفية تحمي فساتين داكنة بذات السواد، قصيرة تكشف عن أكتاف وسيقان نسائية، فور أن تخلع إحداهن معطفها محتمية بدفء عطور المُعزين داخل المنزل حتى تتهافت شهقات النشوة الصامتة التي تعتلي عقول أرباب الشوارب والفحولة الناضجة في نظرات خاطفة.. ثم يعودوا سريعاً لثباتهم ونظراتهم الهادئة خشية ملاحظة أحدهم للآخر.. ليتهم يعلمون أنه لن يضحي أحدهم بهذه اللحظة من المتعة الحميمة في إبداء إعجابه بأنوثة إحداهن المفرطة لكي يسترق النظرات حول هذا أو ذاك ومن يشتهي من؟

طاولة عريضة رخامية.. تحمل فوقها إناءاً به بعض الورود مع كؤوس زجاجية شفافة ذات ساق رفيعة بها رشفات من النبيذ المفضل لمثل هذه المناسبات الحزينة.. الشامبانيا

البيضاء.. يتطرق المعزين ناحيتها ساحبين كؤوسهم كلاً على حدا.. ليحمل أحد مرتدي البذلات الداكنة كأسين متقدماً بهدوء لا يفلت الأنظار ناحية تلك الفتاة العشرينية.. مقدماً لها كأساً بثقة وابتسامة راقية تليق بهيئته الجادة وشعيراته الناعمة.. التي كسى الشيب أطرافها.. مع عينين هادئتين يحملن الكثير من الإعجاب.. تمد الفتاة يدها بتوتر ممسكة بالكأس مع نظرة حالمة تهوى طريقته.. لتعود سريعاً إلى صديقاتها اللذين يقفن معها متعجبين من المشهد الدائر أمامهم.. بينما يرحل ذاك الأربعيني نحو الحائط المقابل ينظر قُبالته إلى الإطار الذهبي لصورة قديمة ذات ألوان باهتة قد عفى عليها الزمن.. تحمل وجه امرأة عجوز تنتشر خطوط التجاعيد على وجهها كمسارات خطوط الطول بالأرض.. شعر أبيض ناصع مصفف بعناية بسيطة.. عينان زرقاوان صافيان يحملن صمت دفين داخلهما.. مع بشرة قمحية.. يغلف الصورة زجاجاً يحميها من التلف موضوعاً على جانب الإطار أعلى اليمين شريطاً أسود قاتم من الحرير معلناً رحيل صاحبة الصورة.

في إحدى أركان المنزل المواجهة للباب.. تجلس "كاميرون" ابنة الراحلة عن عالمنا هذا الصباح "ماريتشا ستيفن" عن عمر يناهز السبعين عاماً أو يزيد بعدة أشهر.. تضع الابنة كفيها على وجهها بنوع من الأسى على خسارتها.. تسير في ربيعها السابع والثلاثين.. مرتدية

سترة سوداء حريرية مغلقة الأكمام كاشفة عن رقبتها حتى أعلى ثدييها بقليل.. تقابلها من الأسفل تنورة سوداء بذات اللون تصل إلى أعلى ركبيتها عند الجلوس لتكشف عن ساقين متناسقين مع جسدها البض وشعرها البني اللامع الذي ينساب على أطراف كتفيها.. ناظرة لأسفل لا تدري ما يدور حولها من أحاديث هامسة ونظرات تقع ما بين الخبث والأسى لحالها.. حولها من يتقرب لإحداهن ليهربا معاً تاركين هذا القبر الصامت إلى فراش يجمعهما سوياً، بضع سيدات يتحدثن حول الحُلي التي يملكنها وما أتاهن أزواجهن من هدايا.. عجائز يجلسن على المقاعد بالركن يتهامسن بقلق عن سيرة الراحلة "ماريتشا" وما كانت تقوم به.. ربما كانت الطائفة الوحيدة صادقة النوايا هم الغرباء الذين أتوا لمواساة السيدة "كاميرون".. يجلسوا قليلاً يتجرعن كؤوسهم في صمت ثم يهموا بالرحيل في هدوء.

في زاوية أخرى تجلس "إيما".. تلك الصغيرة التي لم تتعدى الستة أعوام.. تحمل كثيراً من جمال والدتها "كاميرون".. ذات البشرة البيضاء المائلة للحمرة في وجنتيها.. شعرها الحريري يحمل لوناً بني لامع.. لم تنل من جدتها الراحلة سوى عينيها الزرقاوان الصامتتان.. لتصبح كلوحة فنية زيتية تخطف العقول.. ترتدي فستاناً أسود قاتم يصل إلى أسفل فخذيها مع حذاء رياضي صغير يليق بطفولتها ولا يتناسق مع زيها الحزين.. تجلس على

إحدى أطراف الطاولة الصغيرة المطلة على النافذة.. تترنح بقدميها في إهمال.. عينيها تحصي عدد السيارات القابعة أمام حديقة المنزل قُبالة النافذة.. ترفع بصرها لأعلى تتأمل السماء المحملة بالسحب الغائمة.. بعض نثرات الجليد المتساقط من أعلى مغطياً أسقف السيارات وجانبي الطريق.. لقد غابت أشعة الشمس الخافتة أو بالأحرى ما تمكن من الظهور منذ ساعات ليغطي الكون الغروب الرمادي.. داعماً الشعور المطبق من أسى يسقط جفونه فوق هذا المنزل.. ترفع "إيما" كفها لأعلى فاردة طرف سبابتها قرب الزجاج لتحركه راسمة دائرة تظهر بوضوح أثر الصقيع الذي غلف المناخ بالخارج.. وما يقاومه من أنفاس حارة داخل جدران المنزل.

يطرق جرس الباب مخرجاً "إيما" من صمتها لتهم قافزة من أعلى الطاولة.. تتحرك بخطوات طفولية حزينة نحو الباب.. ترفع أطراف قدميها لأعلى متحاملة على قبضته لينفرج ببطء.. يقابلها السيد "مارك" بابتسامة هادئة.. ينزل على ركبتيه بعد أن دلف للداخل مغلقاً الباب خلفه ليلثم خد "إيما" مدخلاً كفه في جيب معطفه الثقيل ليخرج بعض الحلوى تتلقفها الصغيرة ببسمة يكسرها الحزن بعد أن شكرته لتهم بالانصراف راحلة لجلستها السابقة.

يقترب "مارك" ناحية "كاميرون" التي تابعته بنظراتها المتفاجئة منذ أن انفرج الباب معلناً حضوره حتى وقف

بالقرب منها ينظر لها حاملاً ابتسامة جانبية لا يلحظها أحد تزيد من توترها.. يخلع معطفه بهدوء كاشفاً عن بذلته السوداء الأنيقة التي تضفي عليه رقياً وثقة.. شعره الأسود الناعم المصفف بعناية.. جسده الفارع ذو الأربعين ربيعاً لكن لياقته البدنية توحي بشباب ناضر.. يفك أزرار سترته ليجلس بالمقعد المجاور "لكاميرون" في صمت.. تحاول الأخيرة تجاهله بالنظر لأسفل واضعة كفيها على وجهها في حزن.

***

حزن دفين يجتاح "إيما" يكاد يعصف بفؤادها.. لا يزال تفكيرها الطفولي لا يدرك رحيل جدتها منذ ساعات قريبة.. لم تدرك ألمها..

صراخها..

روحها المعذبة ترجو العون..

أو ربما هي لم تسع لشيء من هذا.

فقط استيقظت "إيما" كعادتها في الساعات الباكرة من الصباح.. تهبط من أعلى فراشها تتخبط في طريقها إثر جفونها المتثاقلة التي تأبى استقبال نهار جديد.. تسير بأقدامها في الممر ناحية غرفة جدتها لتطرق بابها بهدوء..

يجيبها الصمت..

تعاود الكرة لكن بلا جدوى..

غريب أمر جدتها اليوم! لطالما كانت مستيقظة طوال الليل وحتى تأتي لها "إيما" لتخرج معها ثم تنال إحدى الروايات الخيالية على لسانها.. ليذوبا الاثنتين في ثبات عميق، هذه المرة لا أثر لحركة بالداخل، ترفع "إيما" جسدها الرشيق لتشب على أطراف أصابع قدميها الرقيقتين فاتحة مقبض الباب لينزلق بهدوء معلناً ما وراءه.. تحدق الصغيرة لما تواجهه بصمت.. تكاد تخرج مقلتيها من محجريهما فاغرة فاهها بفزع.. لم تشعر بخطوات الأقدام الثقيلة التي تتقدم خلفها.. تقترب الأصابع بثقل من أكتافها حتى تلامسا.

تفزع "إيما" شاهقة بقوة إثر تلك الكف التي قبضت على إحدى قدميها مما جعل المعزين ينظروا ناحيتها بقلق.. تقابلهم "إيما" بعينين مرتجفتين لتعود سريعاً ناظرة على هذه الكف لتجدها "كلير".. صديقتها الوحيدة.. ترتدي معطفاً صغيراً رمادي اللون مع قبعة صوفية بيضاء ناصعة تغطي شعرها الأشقر ذات الحذاء الرياضي المبهج ترتديه كما يحبا أن يفعلا الصغيرتين دائماً.

تتساءل "كلير" بقلق طفولي:

- ماذا بكِ يا "إيما"؟

يجيبها صمت "إيما" بنظرة مرتجفة مما ورد على خاطرها منذ لحظة.. ليعود الجميع مستكملين حديثهم متجاهلين

تلك الصغيرة غريبة الأطوار بعد أن ألقت والدتها نظرة لائمة لفعلتها.. ثم تعود "كاميرون" إلى صمتها ناظرة ناحية ذاك الأربعيني جوارها.

تكرر "كلير" سؤالها بقلق طفولي:

- هل أنتِ بخير؟

تجيبها "إيما" محاولة التماسك:

- نعم.. وأنتِ؟

"كلير" بنبرة طفولية:

- أشعر بالملل من كل هذا.

تنظر لها "إيما" بنظرة حزينة لتعاود "كلير" تحسين ردها بحنان صديقة لم تقصد فطر قلب صديقتها:

- لم أقصد ذلك يا "إيما".. آسفة لرحيل جدتك.

"إيما" بنقاء طفولي:

- نعم.. لا عليكِ.

"كلير" محاولة جذب صديقتها من صمتها البائس:

- ما رأيكِ أن نلعب سوياً حتى ينتهوا مما يفعلوه؟

"إيما" باستفهام:

- نعم.. ولكن أين؟!

"كلير" مجيبة بطفولة:

- بالأعلى في غرفتك.

"إيما" بأسف:

- لقد أغلقتها أمي.. تعلم أننا ربما نصعد إليها.

"كلير" محاولة إيجاد ضالتها:

- حسناً غرفة جدتك.. لطالما أحببتِها.

"إيما" متسائلة بقلق بادي على ملامحها:

- ماذا إذا عثرت علينا أمي؟

"كلير" مقنعة إياها:

- لا تقلقي.. لن نحدث ضجة.

"إيما" متقبلة بأسلوب طفولي:

- حسناً.. هيا.

تهبط "إيما" أسفل الطاولة لتتحرك الصغيرتين بخفة بين أقدام الجمع دون أن يلحظ أحد.. اقتربا من "كاميرون" ليختبئا خلف أحد الجدران الجانبية.. متحركين على أصابع أقدامهما بضع خطوات بعيدة عنها حتى استقلا درجات السلم لأعلى.. فور أن وصلا للطابق العلوي هرولا بخفة إلى الممر المتجه إلى غرفة الراحلة "ماريتشا".. كما اعتادت "إيما" رفع جسدها لأعلى فاتحة مقبض الباب

لينفرج معلناً أزيزه الهادئ.. لأول مرة تدخل الصغيرة هذه الغرفة طوال أعوامها القليلة دون أن تجد جدتها الحبيبة قابعة على الفراش تدثر بالغطاء كما اعتادت أن تراها.. تنظر "إيما" لفراغ الغرفة المظلمة رغم ضغط "كلير" على قابس الكهرباء جانبها ليضيء أركان الغرفة.. لكن لا تزال "إيما" تراها مظلمة.. رمادية.. كئيبة دون روحها التي سكنتها.. النور "لإيما" كان جدتها.. العجوز التي احتضنتها في ليالٍ قاسية لتمزح معها وتخبرها ألا تحزن.. ألا تخاف.. لطالما كانت جانبها.

تتذكر "إيما" ما رأته هذا الصباح بصمت يطغى على كيانها.. محدقة بعينيها نحو الركن الذي تربعت فيه جدتها للمرة الأخيرة..

حتى أفاقتها "كلير" بنبرتها الطفولية المزعجة:

- ما كل هذه الأشياء الغريبة؟!

"إيما" متسائلة عائدة إلى واقعها:

- ماذا؟

تتحرك "كلير" للداخل بعد أن أغلقت الباب خلفها بهدوء حتى لا يحدث ضجيجاً.. تنظر بعينين منبهرتين لطفلة ترى ما لا يدركه عقلها النضر من كتب ضخمة تغشاها أغلفة ثقيلة ذات ملمس قاسي ملقاة على الأرض.. كرات معدنية متوسطة الحجم موضوعة فوق صحن فضي فوق الطاولة

بركن الغرفة.. بعض فرشاة الألوان الزيتية تقبع جانب زجاجات بها سائل داكن اللون.. نقوش ملونة على الحوائط مبهمة لكنها تحمل مظهراً بهياً.

لتتحدث "كلير" قائلة:

- لدى جدتك الكثير من الأشياء.. يبدو أننا سنمرح هنا أكثر من دمى غرفتك البالية.

"إيما" بصوت منكسر:

- لا أحب هذه الأغراض بقدرها.

تنظر لها "كلير" بحزن لتترك كل ما يخطف لُبها مُقبلة ناحيتها تحتضنها بطفولة بريئة.. تهمس في أذنها مطمئنة:

- لا تحزني يا "إيما".. أنا هنا معكِ.. سنمرح سوياً.

"إيما" تهمس بقطرات دمع تنساب على وجنتيها:

- لا ترحلي يا "كلير".

"كلير":

- لن أفعل.

تسرح "كلير" محتضنة صديقتها الحزينة بينما عيناها معلقة بذلك الإطار المعدني الذي يحمل نقشاً مبهماً فوقه.. لتتحرك بهدوء مفلتة "إيما" من بين يديها لتشير متساءلة بلهفة:

- ما هذا الشيء هناك؟

تلتف "إيما" خلفها ناظرة حيث تشير صديقتها بإصبعها جانب الفراش.. لتجيبها:

- لا أعلم.. ربما إحدى حاجيات جدتي.

تقترب الاثنتين منها لتظهر إحدى جوانب هذا الإطار بوضوح لهما.. تجذبه "كلير" بقوة من أسفل الفراش حتى اتضحت معالمه أمام ناظريهما.. إطار مستطيل الشكل له حواف ذات أعمدة معدنية مرتفعة قليلاً كتماثيل لأشباه بشر منحوتة تختلف قليلاً في التكوين الجسماني.. يغطي سطح الإطار نقوش كثيرة متداخلة ترتفع عن سطحه ثابتة كالتضاريس.. فضية اللون كما الإطار.. يرفعا الصغيرتين الإطار من جوانبه الأربعة معتمدين على تلك الأعمدة.. يحمل ثقل لا يناسب جسدهم اللين ليتحركا به إلى منتصف الغرفة..

تتعجب "كلير" متنهدة:

- هذه اللعبة ثقيلة بحق!

يجيبها صمت "إيما" المتحاملة على أعصابها حتى لا ينفلت منها الإطار.. يضعاه أرضاً ليجلسا الصغيرتان قُبالة بعضهما في وضعية القرفصاء.. ناظرين لبعضهما ببلاهة عما سيقومان به.

تقطع "إيما" صمتها متسائلة:

- إذاً كيف تعمل هذه اللعبة؟

"كلير" ساخرة بطفولة:

- لا أعلم.. إنها لعبة جدتك ليست أنا.

"إيما" بنظرة خاوية:

- لم نلعب سوياً بها من قبل.

لتقرب "كلير" أطراف أصابعها ببطء تتلمس النقوش البارزة فوق سطح الإطار.. فور أن قربت سبابتها تتحول هذه النقوش الصلبة إلى رمال سوداء خشنة أمام أعينهما.. يتراجعا الصغيرتان للخلف بظهورهما قلقين بينما تبدأ الرمال في التحرك دائرياً بشكل حلزوني صانعة فجوة فارغة في وسطها معلنة عن عين بيضاء ناصعة تتوسطها حدقة قاحلة ليثبت الإطار على هذا الوضع.. ينتفض جوف الصغيرتين لتظهر قطرات العرق على جبينهما مذعورين.. دقائق مرت عليهما صامتين دون حراك بعد أن فقدا أعصابهما حتى اقتربت "إيما" منه تدريجياً بفضول طفولي يقتلها.. تضع رأسها قرب تلك الحدقة المظلمة لتتحرك بدورها فجأة ناظرة إليها لتصرخ "إيما" بصوت يشق الجدران:

- اااااااااااااااااااااااااه.

***

"كاميرون" تهمس ناظرة لأسفل:

- ماذا أتى بك الآن؟

"مارك" بهدوء ساخر:

- أرغب بكأس شمبانيا.

"كاميرون" تنظر له هامسة بملامح غاضبة:

- أتمزح؟!

يجيبها "مارك" معتذراً:

- اهدأي.. أعتذر لكِ.. أتيت لأعزيكِ.

"كاميرون" مجيبة بهمس بعد أن أدركت محاولته للتخفيف عنها:

- ربما لا تعلم.. لدينا هاتف بالمنزل.

ينظر لها "مارك" متعجباً من ردها لينطق:

- أردت أن أكون بجانبك في مثل هذه الفاجعة.

"كاميرون" مدققة على جملتها:

- لا أرغب أن يدرك أحد شيئاً عنا سوياً.. على الأقل هذه الفترة.

"مارك" هامساً باستهزاء دون النظر إليها:

- تتجنبي لقائي في العلن خشية أن يخبر أحدهم

"واطسن"!

"كاميرون" هامسة بغضب:

- يا لحماقتك.. ماذا إن لاحظ أحد معارفنا الموجودين بالمصادفة يعزونني الآن.. يتحادثون داخل هذه الغرفة.. هذا المنزل.. في هذا العزاء!

"مارك" متسائلاً وهو يرتشف بضع قطرات من كأسه:

- إلى متى سنظل على هذه الحال؟

"كاميرون" متعجبة من سؤاله:

- حقاً!. هل تراه وقتاً مناسباً لمثل أحاديثك البلهاء تلك؟!

يدرك "مارك" سخافة سؤاله ليحاول تهدئة مجرى الحديث:

- آسف.. ماذا تريدي أن أفعل الآن عزيزتي؟

"كاميرون" منهية حديثها ناظرة إليه بثبات:

- ربما الأفضل أن ترحل.

ينظر لها "مارك" بغضب من كلمتها التي أهانت كبرياؤه، لحظات مرت عليه كدهر يتطلع لوجهها الجامد وملامحها الحزينة رغم صلابتها ليهم على الفور من جلسته مرتدياً معطفه.. يتجه بخطوات مسرعة نحو الباب محاولاً عدم لفت الأنظار إليه.. لم يلحظه إلا ذاك الأربعيني الذي يتابع

تحركه بابتسامة جانبية ليتجرع باقي قطرات النبيذ بكأسه..

تتابع "كاميرون" بنظرة حزينة رحيله مدركة ما ستواجهه من رد فعله العنيد بعد كلمتها الحمقاء التي خانها لسانها وتفوه بها ثغرها.. ليخرجها من تفكيرها صرخة عالية تأتي من الأعلى لتتحرك مسرعة تتقافز على درجات السلم التي كادت أن تفلت إحدى قدميها من فوقها مستندة على سور السلم حتى وصلت للممر بالأعلى..

تنادي بصوتها المذعور الذي جذب بعض المعزين ورائها لأعلى:

- إيماااااااااا.

تتحرك ناحية غرفة والدتها الراحلة فهي تعلم أن ابنتها طالما اختفت من أركان المنزل فلن تنالها سوى تلك الغرفة التي مكثت داخلها أكثر من أي مكان آخر.. كما أنها أغلقت غرف الطابق العلوي سوى تلك الغرفة التي تناستها خلف هذه الفاجعة وتجهيزات العزاء.. ناهيك عن جثمان الراحلة والدتها الذي نُقل إلى الكنيسة عند الظهيرة لتجهيز صلاتها غداً.. تهرول ناحية الباب لتفتحه بقوة ضاربة إياه فينفرج على مصراعيه.. تجد الصغيرتان يجلسان حاضنين بعضهما قرب الإطار الفضي في رعب مغمضين عينيهما.. ترتجفان بقوة.. تقترب "كاميرون" منهما هابطة على ركبتيها لتحتضنهما وتربت على رأسيهما متسائلة بنفس

لاهث:

- ماذا هناك يا صغيرتاي؟

تجيبها "إيما" بصوت متهدج:

- هذه اللعبة تتحرك.

يدخل إلى الغرفة والدي "كلير" مفزوعين يجذبا ابنتهما برفق من أحضان "كاميرون" ليقتربا منها مربتين على كتفيها متساءلين بينما تسبقهما "كاميرون" مستفهمة:

- أي لعبة عزيزتي؟

تشير "إيما" بسبابتها دون النظر ناحية الإطار الفضي بينما ترتجف في أحضان والدتها.. تنظر "كاميرون" بدورها ناحيته لتجده يحمل نقوشاً بارزة ثابتة لا غريب يذكر فيها.. لتربت على رأس صغيرتها مهدئة إياها بصوت دافيء:

- حسناً يا صغيرتي.. كل شيء على ما يرام.

يتحرك والدي "كلير" ممسكين بأيديها بعد أن هدأتا الصغيرتان من فزعهما قليلاً.. لينظرا الوالدين بإعتذار عما فعلته ابنتهما من إزعاج مع صديقتها راحلين في هدوء.. "فكاميرون" لديها ما يكفي من أسى يشغل بالها أقسى من ترهات هاتان الصغيرتان.. بينما تثار على وجهيهما علامات القلق والريبة.. لتتفهم "كاميرون" إعتذارهما متمتمة برأسها.. تقف الأخيرة بهدوء رافعة صغيرتها بين أحضانها

ليترجلا من الغرفة التي أثارت ترقب وقلق بعض المعزين مما رأوه داخلها وما أصابهم من شعور مقلق بينما البعض الآخر يتأفف من خيالات الصغار المدللين التي تفسد حتى أتعس اللحظات..

لتغلق "كاميرون" الباب خلفها هابطين جميعاً لأسفل مستكملين شعائر العزاء الكئيبة.

***

يناير 1942

12:00 مساءً

كنيسة "الأنبا جورج"

انقضى الأمس معلناً إسدال ستاره الرمادي في مشهد احتضان "كاميرون" لصغيرتها نائمين سوياً تحت سطوة مشاعرهما المتضاربة، عروشهما خاوية، حائطهما الصلب الذي اتكئا عليه يحتميا مما يحمله العالم من مصائب. رحلت أنيستهما وأمانهما البارحة تاركة إياهما يتجرعا سوءة وحدتهم ليستقبلا صباح يوم جديد حزين يسقط عليهما ضوءه الخافت خلف الغيوم المثقلة. تتأهب "كاميرون" مرتدية سروالاً قماشياً رمادي يتناسق مع ثنايا جسدها ليعتليه سترة سوداء حريرية، تتدثر أسفل معطف ثقيل يحمل سواده كآبة مطلقة وكأنه خُلِق لحضور مثل هذه الأمور، توقظ صغيرتها "إيما" من ثباتها العميق الذي الذي نالته في حضنها بعد أن قررت النوم في غرفتها، تجهز لها بضع شطائر خفيفة للإفطار بعد أن تركت لها زي أسود كامل مكون من سروال مريح في الحركة وقميص صوفي ثقيل يتبعه حذائها الرياضي المزركش بالألوان. لطالما فضلت "إيما" إرتداؤه حتى يجهزا لمراسم الدفن.

مشهد مهيب له قدسية صارخة.. التابوت الخشبي ذو

اللون البني اللامع مع الصلبان الذهبية البارزة على جوانبه فوهته منصرعة كاشفة الغلاف الحريري الناعم داخله الذي ترقد فوقه الراحلة "ماريتشا"، شعرها الأبيض كحقل من القطن مصفف بعناية فائقة، تجاعيد وجهها التي تخفي أغلب ملامحها، بشرتها التي اكتسبت زرقة مقبضة للموتى، ترتدي زياً راقياً داكن اللون ويرقد جثمانها ثابتاً مغمض العينين ينتظر رحلته التالية مع التحلل أسفل الثرى مودعاً هذا العالم بضجيجه.. "كاميرون" تجلس محتضنة صغيرتها في الصف الأمامي قُبالة التابوت بينما يحتشد المعزين خلفهما في الصفوف التالية المخضبة باللون البني المحبب، لولا سوادهم العارم الذين يرتدوه لرغبت في رسم لوحة فنية لهذه المقاعد المقدسة. ينصت الجميع باهتمام وأسى مفتعل للبعض إلى صلوات "القديس" وإعداد الترانيم الحزينة حتى جاءت الساعة التي يتقدم فيها بعض المعزين نحو المنصة لينثروا بضع كلمات حانية دامعة على فراق هذه الروح المحببة وكم كانت تحمل مشاعر غالية داخل هذا الجسد الواهن.

يتحرك أحد الأقارب مرتدياً بذلته السوداء مقبلاً نحو المنصة. يتنحنح قبل أن يسرد بصوته الهامس دون أن تعطي "كاميرون" تركيزاً بالغاً له:

- "لقد فقدنا الأمس جداراً شامخاً يحمينا.. لم نفقد سيدة عجوز.. لم نفقد روحاً انطفت أو جسد تفشت فيه التجاعيد

كسرطان يأكله.. بلى لم ترحل عنا رميم عظام عفى عليه الزمن.. وإنما رحلت أماً ووطناً لطالما احتضننا لنجد ضالتنا داخله".

لينهي هذا الوقور الذي عبر عقده الخامس بقليل كلمته الحانية، يهبط متثاقلاً عن المنصة ويترجل إلى مكانه بإحدى الصفوف في حين تسير سيدة عجوز دامعة بحزن بالغ نحو التابوت.. قصيرة القامة شقراء.. تقترب من عقدها السادس.. تتكئ على عكازها لتتابعها "كاميرون" ومن خلفها الحضور أجمعين.. خطى بطيئة تعاني لهوان جسدها الهزيل حتى استندت على طرف المنصة ماسحة دموعها الساخنة بطرف منديلها القماشي، تعرفها "كاميرون" جد المعرفة.. إنها العجوز "أنطوانيت".. لطالما جالست الراحلة طوال الأعوام الأخيرة في المنزل أو يتحاكا معاً في أطراف الحديقة يتأملا لحظات المغيب المحببة لنفسيهما، هذه العجوز تكن حباً صادقاً لوالدتها رأته على مدار سنواتهما سوياً.

هناك قول مأثور يحث:

- "أن العجائز من البشر يحملوا داخل جوفهم الكثير.. لا يتفوهوا إلا لمثيلهم من رفقاء السن والذين تغاضوا منذ زمن عن متاع الحياة وريعان شبابها.. إذا رحل أحدهم يظل الأخير حزيناً على فراقه.. يتأمله في كل أركان حياته.. يسمع حثيثه.. ضحكاته.. ألمه.. حتى يناديه ليقيم معه

بعالمه الجديد".

تنطق العجوز "أنطوانيت" بحديث هامس يخرج من جوفها الذي يخفق بأسى بالغ لخسارتها:

- "لم آتي اليوم لأنعي أحداً.. أو أنثر كلمات رقيقة على فراق "ماريتشا".. فأنا لا أملك مثل هذه الموهبة في البث بحديث جميل عن روح فقيد عزيز على أحدنا.. ولكني أتيت لأوفي بعهد اتخذناه سوياً منذ سنوات انقضت.. من يرحل فينا نحو النعيم أولاً فسيظل الأخير بجانبه حتى آخر رشفة ثرى تُلقى فوق نعشه".

لتنساب دمعة ساخنة تشهق معها العجوز ناظرة لأسفل لتكمل بنبرة مزقت قلوب المعزين وعلى رأسهم الصغيرة "إيما":

- "والرب يعلم كم كان وجودي هنا صعباً وثقيلاً على نفسي.. لقد قطعت هذا العهد فقط لرجاء تمنيته في سري.. أن تكون هي من تتحدث عني الآن وليس النقيض أبداً..

آاااااه يا عزيزتي..

لقد فعلت آثاماً في سنواتها المنقضية لن يغفرها أحداً لها.. ولكن من لم يفعل.. من وجد ذاته بريئاً يرتدي ثوب الملائكة فلينصب نفسه قاضياً بالحق ويأمر بما يراه عقاباً نافذ على روحي التي رحلت عني..

كلنا خطائون..

كلنا مذنبون..

ولكن أرحمنا قلباً من أنبه ضميره وظل يعتصر ألم ذنبه ليقضي سنواته الأخيرة راجياً أن يرحل عن هذا العالم وهو نظيف.. ماحياً ما لوث روحه..

وقد فعلت..

يا ليتكم تدركون ما أشعر به الآن من مرارة تسكن جوفي.. لقد خسرت توأم روحي.. محدثتي.. رفيقتي في وهني.. لقد خضناً سوياً حروباً ونحن نتحادث.. استنشقنا نسيماً عابراً يغزو روحنا بالحنين.. تجرعنا مرارة الحزن سوياً عندما اعترفنا بأعمالنا الدنيئة.. لم يفرقنا عن بعضنا سوى سويعات النوم التي كرهناها وكأنها قاتل بدم بارد يفصل جسداً عن روحه..

لطالما كانت هي روحي..

الآن ذهبت لرقدتها الأخيرة.. ولم يبقى لي منها سوى همس صوتها الحنون.. صورتها المعلقة بقلبي حتى يوم رحيلي لها".

تهبط العجوز "أنطوانيت" من فوق المنصة بعد أن أنهت رثائها مستندة على عكازها والدمع يغزو جفونها التي اكتسبت حمرة قانية إثر البكاء الحارق، تقترب بخطوات

بطيئة نحو "كاميرون" التي أنصتت لكل حرف خرج من فمها لتحتضنها بقوة دامعين سوياً.. بينما تفلت العجوز يديها برفق لتقترب مائلة برأسها نحو الصغيرة "إيما" التي تدمع بصمت، تلثمها بحنين على جبينها ثم تعتدل لتقف جوارهما ليقف المعزين جميعاً في ثبات لإنهاء شعائر العزاء الأخيرة بأن يتحركوا صفوفاً متتالية بهدوء ناحية جثمان الراحلة ليلقوا عليها نظرة الوداع الأخيرة قبل الفراق الأبدي.

انتهى الجميع بما فيهم "كاميرون" والعجوز "أنطوانيت" اللتان رغبتا في أن يبقيا سوياً جنباً بجنب ملقين صلاتهما ووداعهما سوياً.. حتى جاء دور الصغيرة "إيما" التي رغبت أن تكون الأخيرة حتى تحظى بوقت أكثر.. ناطقة لوالدتها برجاء حزين:

- هل يمكنني أن أكون آخر من يلاقيها قبل رحيلها؟

لتوافقها "كاميرون" متمتمة برأسها دون نطق في مشاعر مختلطة ما بين الحزن على ابنتها وما أصابها من أسى يمزق طيات قلبها وبين فزعها أن يحدث شيئ مقلق يعبث به خيالها حتى لا تفزع هنا أيضاً مثلما حدث ساعة رحيل جدتها ومن بعدها مع صديقتها "كلير" أمس.

لكنها في النهاية استسلمت لرغبة صغيرتها الوحيدة لتتراجع للخلف مع المعزين تاركةً إياها تقترب بخطوات طفولية بطيئة قرب التابوت، تنظر "إيما" داخله مضطربة

المشاعر، لا زالت لا تتقبل رحيل جدتها الحانية صاحبة الابتسامة المطمئنة دائماً.. كم تمنت في جوفها لو أن ترحل والدتها، أن يرحل كل من تعرفه، يرحل العالم سوى جدتها، لكن لم تكن أمنيتها مفعمة بالقبول.

تتذكر ليالٍ طوال كانت تدعو لجدتها العجوز عندما تنام بأحضانها وتصلي لها بصمت حتى لا توقظها، كانت تهمس بينها وبين ربها أن تظل معها للأبد، لم يفطن عقلها الطفولي الصغير ملكة الموت، لتنهمر دموع حارة على وجنتيها في صمت منها حتى اقتربت برأسها منحنية قليلاً لتضع قُبلة فوق رأس الراحلة "ماريتشا" مودعة إياها.. لتعود "إيما" بعدها للخلف قرب والدتها حزينة مطأطأة رأسها لأسفل ليغلق "القديس" غطاء التابوت.

***

شاهد القبر الرخامي خمري اللون منحوت فوق واجهته:

الراحلة "ماريتشا ستيفن"

منذ 1872 إلى 1942

محفور أمامه قطعة مستطيلة الشكل يقترب عمقها من المترين أسفل الأرض، يرقد بجانبها التابوت البني مغلقاً كاشفاً غطاؤه عن صليبٍ ضخم ذهبي اللون بارز لأعلى، يقف المعزون حاملين بعض الورود الحمراء القانية في أسى كنوع من الطقوس لإسقاطها فوق الجثمان، تستند

العجوز "أنطوانيت" بيد على عكازها وبالأخرى تتأبط ذراع "كاميرون" ملقين بنظرهم على التابوت كباقي الحشد في لقاء أخير، يقف في مواجهتهم بجانب الشاهد "القديس" في زيه المهيب الأسود وقلنسوته البيضاء حاملاً الكتاب المقدس بين كفيه لينطق بالصلاة الأخيرة على روح الراحلة.

من زاوية أخرى تقف الصغيرة "إيما" بجانب والدتها تمسك بطرف أصابعها، تتأمل في صمت الأراضي الخضراء النضرة التي تتخللها شواهد القبور من حولها، شواهد مختلفة اللون والتكوين ما بين خمرية اللون وأخرى رمادية إحداها عالية بينما التي تليها عريضة مائلة للقصر وكأن هذه الشواهد يتم نحتها طبقاً للتكوين البدني للراحل ومكانته بين الناس، أسماء وتواريخ متضاربة ما بين من رحل الأمس ومن رحل منذ أعوام انقضت.

تفطن "إيما" بعقلها الطفولي إلى تساؤل تطرحه على مسامع والدتها ناظرة لها لأعلى:

- أمي.. كل هذه الأسماء موجودة أصحابها بالأسفل؟

تجيبها "كاميرون" بنبرة حانية:

- نعم يا عزيزتي.

تعاود "إيما" استنتاجها مكملة ببسمة تعتلي ملامحها الطفولية وكأنها وجدت ضالتها:

- إذاً.. لن تبقى جدتي هنا وحيدة؟

تطمئنها العجوز "أنطوانيت" هذه المرة ناظرة لها بإبتسامة هادئة تليق بتجاعيدها:

- نعم.. لا تقلقي يا صغيرتي.. سيكون لديها كثير من الرفقة لتحادثهم.

تعود "إيما" إلى شرودها بعد أن شعرت بقليل من الطمأنينة على حال جدتها لينتهي بعد هنيهة "القديس" من تناول صلاته، يبدأ الحفارون في ربط جانبي التابوت ببعض الأحبال المتينة ليبدأوا في التعاون سوياً لجره قرب الحفرة، ينزلوه بهدوء للأسفل حتى يلامس الأرض الطينية وفور أن أراحوا مرقده يتراجعون للخلف ساحبين أحبالهم ليتحرك المعزين بذات الهدوء والترتيب مقتربين ليهموا بإلقاء ورودهم ثم راحلين خارج بوابة المقابر تجاه سياراتهم المتراصة على جانبي الطريق. يأتي الدور على على العجوز "أنطوانيت" التي ظلت متأبطة ساعد "كاميرون" يتحركا بضع خطوات ليلقيا ورودهم تتابعهم "إيما" التي حملت وردتها الكبيرة مقتربة من الحفرة ناظرة لأسفل تمد يدها الصغيرة لتفلت وردتها حتى يقابلها تحرك غطاء التابوت بعنف، يهتز بشدة مما جعلها تتراجع بفزع للوراء لينفرج الغطاء بقوة ومن خلفه ينتفض جثمان جدتها بملامحه المفزعة التي أكسبها الموت إياها.

لتصرخ بصوت هادر في وجهها:

- لا تعبثي بحاجياااااتي..!

ترتجف الصغيرة "إيما" متراجعة للخلف بخطوات مضطربة وقلب ينتفض، تسقط على فخذيها صارخة بصوت طفولي، تقبض على وردتها بقوة لتقترب منها "كاميرون" بعد أن أفلتت يد العجوز "أنطوانيت" التي كادت أن تقع بدورها، تحتضنها سريعاً لتنهمر دموع الصغيرة بغزارة على كتف والدتها، تحاول "كاميرون" تهدئتها مربتة على ظهرها لدقائق، تسألها بقلق:

- ماذا جرى لكِ يا عزيزتي؟

تنطق "إيما" بصوت متقطع لاهث في خوف حقيقي:

- جدتي.. لقد.. لقد خرجت من فراشها.

تتفهم "كاميرون" خيالات صغيرتها، تعلم كم كانت متعلقة بجدتها لتعدل من حضنها مكملة بعطف:

- هدئي من روعك يا صغيرتي.. إنها مجرد خيالات.

لتكمل "إيما" مؤكدة بصوتها المرتجف:

- لا.. لقد رأيتها.

تخرجها "كاميرون" من حضنها برفق لتهمس بوجهها باسمة مطمئنة:

- سأريكِ بنفسي إذاً.. هيا بنا.

تقترب "كاميرون" ممسكة بكف صغيرتها لتقف أعلى الحفرة، تتقدم "إيما" بخطوات ثقيلة مترددة وضربات قلبها تنبض بقوة، ترتجف يدها لتضغط عليها والدتها ناظرة لها بإبتسامة مطمئنة، تنظر "كاميرون" داخل الحفرة لتعود بوجهها لإبنتها مشجعة تحثها على الإقدام لتقترب الأخيرة بدورها مائلة بوجهها لأسفل، تجد كل شيء ساكن كشواهد القبور من حولها.

تحدثها "كاميرون" بعطف:

- والآن.. ما رأيكِ أن تلقي بوردتك لها.. لقد انتظرتها طويلاً.

لتلقي "إيما" بوردتها داخل الحفرة سريعاً ثم يتحركا سوياً للوراء ناحية "أنطوانيت" التي ظلت ترمق الصغيرة بنظرات قلقة منذ فزعها لتتعمد إخفائها سريعاً حتى لا تلحظها "كاميرون" مبدلة إياها ببسمة خالية مما تفكر فيه، يقف ثلاثتهم ينتظرن انتهاء الحفارون من ردم التابوت ووضع بعض البذور فوق الأرض الطينية لتنضر فيما بعد كباقي الحال من حولهم..

يتحرك الثلاثة ناحية باب المقابر مودعين عزيزة على قلوبهم، تلف العجوز "أنطوانيت" رأسها للخلف ناظرة إلى شاهد قبر صديقتها بنظرة خاوية لتعود برأسها للأمام تتأبط

ساعد "كاميرون" خارج البوابة.

***

10 فبراير 1938

7:00 مساءً

المشفى العقلي

الغرفة مظلمة كلياً، ضيقة الأركان، فارغة سوى من فراش معدني متهالك يرقد عليه ذاك الهرم المترهل، نافذة صغيرة بأعلى الجدار تطل على السماء لينساب ضوء القمر الخافت من خلالها منيراً ذاك الفراش، نسمات صقيع تدور في الغرفة، تتسلل أسفل الغطاء الصوفي البالي لتعبث بأطراف أصابع هذا العجوز الذي تخطى عامه السابع والخمسين، جسده الضخم يملك أرطالاً من الشحوم كأنه كومة ملقاة أعلى الفراش، أصلع الرأس ذو بشرة بيضاء مائلة للحمرة، الجدران الخرسانية تمتص كثيراً من البرودة التي تغلف الطقس بالخارج لتجعل من يقبع بينها كأنه جالس بإحدى ثلاجات الموتى. رغم هذا فهو يغط في نومه لا يشعر بأي شيء، فقط ملقى فوق فراشه بإهمال واضعاً وجهه داخل الوسادة القطنية تاركاً ظهره في مواجهة السقف، يرتدي زي المرضى المكون من سروال وسترة قماشية زرقاء صافية، علامات العرق تظهر جلية أسفل إبطه وعلى فخذيه، درجة حرارته ترتفع لتصاب دماغه بالغليان كأن جسده يذوب من الداخل ولكنه ثابت كقمة جبل من الخارج.

الهدوء يغلف الغرفة سوى من أنفاسه المتلاحقة، خارج هذا الباب المعدني الثقيل ذا القضبان يقابله الصمت المطبق بالممر المظلم.

لا حياة..

لا أنفاس لبشر يعيشون هنا..

إنه الظلام..

الظلام فقط..

تبدأ أطراف هذا العجوز بالرعشة والانتصاب، أصابع كفيه تتشنج بينما أصابع قدميه تتصلب كاملة، يفتح عينيه سريعاً محدقاً ليقابل الظلام قُبالته، وجهه مضغوط داخل الوسادة يجعله غير قادر على التنفس، يحاول الاعتدال في رقدته لكن ما أن حرك كفيه ليستند بثقله عليهما يجد عظامه تئن وكأنها تصعق أسفل هراوة حديدية.

يصرخ بحنجرته الغليظة ممزقاً الظلام:

- آاااااااااااااااااااااااااااااه.

تلك الصرخة العاتية التي أفزعت كل من يقيم بالغرف المجاورة له مما جعلهم ينتفضون من مرقدهم مسرعين ليلتصقوا بوجه قضبان الأبواب الحديدية لكن دون صوت يخرج منهم.

الألم أصبح لا يطاق، لا يفطن لمعرفة مصدره، لقد بدأ

متسللاً من أطرافه حتى سرى في عظام جسده بالكامل، لقد اختنق فعلياً ولم يتبقى له الكثير من الهواء، هذه الأنفاس اللاهثة التي يتجرعها متتالية لن تكفي احتياج رئتيه، يحاول مراراً تحريك جسده الثقيل يميناً ويساراً محاولاً الترنح ولكن تبوء محاولاته بالفشل، كلما زاد من ضغط وزنه على عظام كفيه يستشيط ألماً.

كم يلعن في نفسه هذه البدانة المفرطة، كم يتمنى الآن لو كان نحيفاً، جميع من بهذا المشفى يكتسبون نحافة مفرطة إثر العلاج والجرعات المتكررة التي يتناولوها يومياً، إذاً ما بال غدده البالية التي تزداد يوماً تلو الآخر ولا تبالي بأي علاج يتناوله، من يجد نفسه تعيساً بجسده النحيف فليأتي إلى هنا يراه في مثل تلك الحالة، يشاهده وهو يسب الكون بأسره محاولاً تجنب الموت مختنقاً.

كم هم محظوظون هؤلاء الأوغاد!

يترك هذه الخواطر تعوم داخل عقله ليسعى في محاولة أخيرة يائسة في تثبيت جسده كابحاً أنفاسه ثم يدفعه يساراً بقوة ناحية حافة الفراش ليهوي على الأرض الخرسانية بثقل عاتي، يسمع بعض عظام جسده تطقطق مشروخة بفعل وزنه ليصرخ بألم رهيب لا يتحمله عقله، مُلقى على ظهره محدقاً لأعلى السقف الخالي المظلم فارداً أطرافه الأربعة على الأجناب لتزداد حالة التشنج في أوتاره، جسده يرتعش كمادة لزجة ثقيلة، يفتح فاه محاولاً سحب كمية هائلة من الهواء

المثلج لرئتيه التي تحملت هذا الثقل لدقائق مرت كدهور عليه.

فترة قصيرة لا يدري قياسها مرت عليه على هذه الوضعية الملقاة بإهمال، يسمع حثيث جيرانه في الغرف المجاورة يتهامسون بصوت خافت يأتيه كأنه من بئر سحيق حتى تداعى إلى أذنيه خطوات ثقيلة هادئة تسير في الممر المظلم، كانت تلك الممرضة "كرستين" ذات الأعوام الثلاثة والأربعين تسير متفقدة أحوال النزلاء في نوبتها المسائية، سيدة تملك جسداً رفيعاً مائلاً للنحافة، قصيرة القامة قليلاً ترتدي تنورتها البيضاء أسفل قميصها الذي يغطي جزعها -إنه الزي المخصص للممرضات- واضعة فوق رأسها غطاء دائري قماشي كاشفاً عن جوانب شعرها المجعد ذي السواد الفاحم، تسير بحذائها ذي الكعب المدبب العريض متثاقلة لتقترب من أحد جوانب الممر ضاغطة على قابس الكهرباء لتشعله بضوء خافت يخرج من تلك المصابيح الواهنة تعطيك لوناً رمادياً ضبابياً أكثر منه أبيض لتغلف الممر بكآبة مقبضة للنفس، وصلت إلى غرفة ذلك العجوز لتقف أمام القضبان الحديدية تنظر له بعين خاوية ليقابلها الأخير بعينيه الغائرة مستنجداً بعصبية تصعق أطراف جسده، تضع يدها في إحدى جيوبها لتخرج سلسلة من المفاتيح تبحث فيها عن الخاص بغرفته، تجده بعد لحظات لتضعه بالمقبض مديرة إياه فينفرج الباب الثقيل مخرجاً أزيزه

العالي، تتقدم "كرستين" خطوتين داخل الغرفة لتقف قُبالة كومة اللحم الملقاة ناظرة لأسفل بشذر.

تحدثه بصوتها الرفيع بلهجة غاضبة رغم لين ملامحها:

- كم أخبرتك ألا تنام في هذه الوضعية مجدداً حتى لا يضيق نفسك؟

تتحرك شفتا الهرم مرتعشة يحاول إخراج صوته الواهن من خلفها لينطق وهو يلهث:

- انقذيني.. أرجوكِ.

تتأفف "كرستين" بدورها ناظرة له بلا مبالاة لحالته المتدهورة وكأنها معتادة على مثل هذه الأمور، تلتف بجزعها خارجة من الغرفة تجاه الممر لتحدثه بنبرة عالية:

- كم أنت وغد لا ينصت أبداً!

يتابعها بنظراته الواهنة لتختفي من أمامه متحركة ببطئ تجاه الهاتف المعلق بالممر لترفع سماعته تطلب رقم غرفة الدكتور "مايكل" القابع بالمبنى الآخر من المشفى، تنتظر رده صامتة لكن لا شيء.

تعيد الكرة من جديد ليقابلها رنين كامل ينتهي بالصمت، تتحدث بدورها بنبرة عالية يسمعها ذاك الهرم ومن قبلها آذان النزلاء الذين يتابعونها بنظراتهم الكارهة خلف القضبان:

- يبدو أن الدكتور "مايكل" نائم الآن.. كم أنت محظوظ هذه الليلة يا "ويلسون"!

تغلق الخط لتطلب الرقم التالي لذات الغرفة، ثوان مرت برنين فقدت فيها الأمل بالرد، يبدو أنها ستضطر للذهاب إليه لإيقاظه -كم هذا مرهق- ليجيبها الصوت الناعس من الناحية الأخرى ينقذها من هذا الخاطر:

- ماذا هناك؟

تجيب "كرستين" بثبات عليه معتذرة:

- أعتذر يا دكتور "مايكل" على إيقاظك من غفوتك.. لكن المريض "ويلسون جرين" زارته حالة الهياج مجدداً و....

يقاطعها الصوت الذي تحول من ناعس إلى غاضب:

- ألهذا توقظيني يا "كرستين"؟!

تسأله "كرستين" محاولة تهدئته:

- أعلم أني أزعجتك يا دكتور "مايكل".. لكن ماذا أفعل؟

يستعر الدكتور "مايكل" غضباً ليصيح متسائلاً:

- ماذا؟! كيف لا تعلمين ماذا تفعلي مع مثل تلك الحالات؟! فقط أعطيه حقنة مهدئة لترخي أعصابه ليذهب في سباته حتى الصباح.

تجيب "كرستين" بقلق:

- حسناً يا دكتور.. لكن يبدو أن هذه المرة أشد قسوة.. هلا أزيد الأبنفرين؟

ينهي الدكتور "مايكل" هذا الجدال:

- فقط افعلي أي شيء دون أن توقظيني مجدداً.

يغلق سماعته في وجهها دون انتظار رد منها بينما تغضب الأخيرة لما سببه لها هذا الهرم الساذج من سخط نتيجة سوء أفعاله، تتحرك عائدة إلى غرفته لتهم بإخراج حقنة من إحدى جيوبها لتملأها بسائل مهدئ، تنحني راكعة على ركبتيها ممسكة بذراعه المتشنج لتضرب بخفة على وريده حتى يظهر، تضع إبرتها داخله لتفرغ محتواه ثم تقف منتظرة سريان مفعوله ليهدأ هذا التشنج، لكنه يظل كما هو.

تعيد ملئ الجرعة من جديد فلقد توقعت هذا الأمر لتعطيه إياها ثم تنتظر ثواني قليلة لكن هذه المرة عروق رقبته تنتفخ وعيناه تجحظان بفزع ناحيتها وصدره يعلو ويهبط بقوة ليزاد لهاثه مما زاد من قلقها، تخرج من الغرفة تسب في سرها هذه الليلة الجحيمية التي يبدو أنها لن تنتهي بيسر، ترفع سماعة الهاتف لتطلب الرقم، يجيبها بعد ثالث دقة بنبرة مستنفرة:

- ماذا الآن؟

تجيبه "كرستين" بصوت قلق:

- لقد ازدادت تشنجاته عن ذي قبل.

الدكتور "مايكل" مستاءاً بغضب:

- ألن ننتهي من هذه الليلة؟!

يجيبه صمتها المتأفف كأنها السبب في حالته.. ليكمل حديثه الغاضب:

- أخبرتكِ أن تضاعفي الجرعة.. لماذا لم تفع.....

تقاطعه "كرستين" بنبرة حازمة:

- لقد فعلت.

يصمت قليلاً متلقياً إجابتها، لا ترى كيف هو حاله الآن والغضب الذي يشتاط بداخله، تنتظر قراره التالي ليقصه على مسامعها منهياً:

- سآتي إليكِ.

"كرستين" منهية مكالمتها:

- حسناً يا دكتور.

تغلق السماعة بإهمال لتعود بذات خطواتها الهادئة ناحية الغرفة، تقف مستندة على الحائط المقابل بالممر تنظر لهذا الذي يعاني راقداً على أرضية الغرفة بخواء، تتابع تشنجاته المتتالية، أطراف جسده التي ترتعش بشدة،

وجهه الذي اكتسب حمرة قانية إثر الضغط العصبي الذي يواجهه، زيه المبلل بالكامل من فرط إفرازات عرقه. دقائق مرت عليها لتقترب من الربع ساعة حتى وجدت باب الممر الرئيسي ينفرج بقوة يأتي من خلفه الدكتور "مايكل" يرتدي سروالاً بنياً وقميصاً خمري باهت يغطيه معطفه الأبيض، طويل القامة عريض المنكبين تجاوز منذ قريب عامه الثامن والأربعين، لا زال يحتفظ بشعر رأسه الكثيف الأسود الذي يتخلله بضع علامات الشيب على جانبيه، يحمل وجهه قسمات غاضبة، يتحرك بثقل وكبرياء -طبيب له باع طويل في مجاله- يأتي من خلفه أحد التمرجية دافعاً جهازاً معدنياً يصل طوله لحوالي متر مربع يقبع فوق أربع عجلات صغيرة، فور أن رأته "كرستين" قادماً تعتدل في وقفتها ليقبل تجاهها بضع خطوات تتابعه فيها أعين النزلاء المرتعبة.

ينطق الدكتور "مايكل" بصوت غاضب ناظراً للمرضى الذين يتابعون الجهاز المجرور خلفه بفزع:

- كل منكم على فراشه الآن.. وإلا تعلمون ما سيؤول إليه الحال.

ليتحرك الجمع مسرعين يرقدوا أسفل أغطيتهم بينما ينظر الأخير بغضب تجاه "كرستين" التي أفسدت نومته، يتحرك داخل الغرفة ناظراً لذلك المسكين الملقى أرضاً بشذر، ينطق بدوره موجهاً حديثه لكل من "كرستين" والتمرجي

آمراً:

- جهزاه لجلسة الكهرباء؟

يسرع التمرجي ناحية "ويلسون" بصمت ليبدأ في محاولة تحريكه بينما تنطق "كرستين" مجادلة:

- لكن ربما لن تفلح في تهدئته يا دكتور.

يجيبها الدكتور "مايكل" مستنكراً:

- ألديكِ حل أفضل الآن؟!

يجيبه صمتها مطرقة برأسها لأسفل ليأمرها بدوره:

- إذاً تحركي.. ليس لدي الليل بأكمله.

يمسك التمرجي "ويلسون" من أسفل إبطيه لتساعده "كرستين" برفع قدميه البدينتين ولكنهما يلهثا بقوة، يحاولا مرات متتالية بكل عزمهما ولكن تبوء محاولاتهما بالفشل. هذا الهرم يحمل أرطالاً لا تعد من اللحم.

لينهي الدكتور "مايكل" معاناتهما متأففاً بضيق:

- لا يهم الآن.. تجاهلا إلقاءه على الفراش وابدءا في تركيب الجهاز فيما يناسب وضعيته هذه.

يتنفسا الاثنين الصعداء لهذا القرار، فهي فعلاً الوسيلة الأسهل الآن، ينحني التمرجي مخرجاً زجاجة من إحدى جوانب الجهاز ليفتحها ويضع ما بها من سائل لزج على

جانبي رأس "ويلسون" ثم يضع القبعة المعدنية المفرغة فوق رأسه حتى يثبت طرفيها المغطين بالاسفنج على موضع السائل، يفتح فمه ليضع بين فكيه قطعة مطاطية ثم يقيد أطرافه بإحكام مستخدماً حزام جلدي سميك حتى لا يتحرك أثناء الجلسة، يواجه صعوبة في التمكن من أطرافه المتشنجة حتى فعلها، تقوم "كرستين" بدورها في وضع سلك الجهاز بقابس الكهرباء وضبط مؤشر الفولت الخارج.

ينتظر الاثنين أمر الدكتور "مايكل" لينظر لهما ناطقاً:

- مستعدين.. إطلاق.

تضغط الممرضة "كرستين" على زر التفعيل الذي يضيئ بالأخضر بينما يزحف التمرجي للخلف، يهتز جسد "ويلسون" بقوة كأنه وسادة قطنية متهالكة لبضع ثوان حتى أوقفت "كرستين" الشحنة الأولى، ينظر ثلاثتهم إلى ذلك الهرم البائس منتظرين منه أن يهدأ من تشنجاته لكنها تعلن تمردها ليستمر تصلب أطرافه وعينيه المحدقتين بالسقف في ثبات.

يأمر الدكتور "مايكل" من جديد:

- مستعدين.. إطلاق.

يضيء الزر الأخضر مطلقاً الشحنات الكهربية بمخ "ويلسون" البائس ليترعش جفنيه محدقا عينيه بجحوظ، أسنانه تضغط بقوة على القطعة المطاطية التي كادت أن

تتمزق لتوقف بعدها "كرستين" الشحنة الثانية.

ينظر الدكتور "مايكل" لجسد "ويلسون" الذي همد بشكل ملحوظ وارتخت أوصاله، ينحني مقترباً منه ليضع سماعته الطبية على صدره مستمعاً لنبضه ليجده ضعيف جداً يكاد يتوقف ليعود إلى وضعيته في الوقوف آمراً "كرستين" بنبرة قلقة:

- زيدي من ضغط الشحنة.. قلبه يكاد يتوقف!

تحرك "كرستين" القابس لزيادة الشحنة.. يعطيها الأخير الإشارة ناطقاً:

- مستعدين.. إطلاق.

بضع ثوان تمر سريعة على ثلاثتهم ينظرون للراقد "ويلسون" بينما هذه اللحظات هي الجحيم بعينه على هذا المسكين الذي ترتعش أوصاله بشدة لا يدركون أنفاسه التي لا يستطيع أن يرتبها، قلبه يكاد ينفجر من جوفه، دموعه المنسابة على جانبي عينيه المحدقتين، وجهه ترك حمرة الضغط العصبي ليكتسب زرقة الموت المقبضة، أطرافه مقيدة بقوة بحزام قاسي يمنعه من التحرك في حين اقترب هذا الحزام من أن يتمزق من أثر نفضات هذا الجسد الضخم إثر الشحنات العالية، لا يعلم أحد هذا الألم والعذاب الذي يشعر به المسكين "ويلسون" وهو ينظر لهما راجياً وقوف هذه الشحنات دون القدرة على النطق بفمه الذي

يقبض على هذه القطعة المطاطية اللعينة، يظن ثلاثتهم أن حشرجة صوته المتألمة التي تحاول الخروج لا تصل سوى لآذانهم فقط وإنما هي تصم أذان المرضى المجاورين الذين يرتعشون جميعاً أسفل أغطيتهم برعب يبكون بحرقة صامتة حتى لا يشعر بهم هؤلاء المُعذبين، يغمضوا أعينهم شاعرين بكل ذرة ألم يصرخ منها المسكين "ويلسون" ولكن يؤثروا الصمت حتى ينجوا من سواد هذه الليلة لنهار جديد.

حتى سكن جسده فجأة وسُبِلت عينيه.

يتوقف القابس ليقترب منه الدكتور "مايكل" واضعاً سماعته الطبية من جديد بقلق بادي واضح على ملامحه بعد أن رأى هدوءه التام، يتحسس نبضه ليجده ساكن تماماً، ترتجف أوصاله لتبدأ مسام جبينه بإفراز العرق ليعود إلى وقفته طالباً من "كرستين" بيأس:

- كرري الشحنة.

لتجيبه "كرستين" فاقدة الأمل بنبرة منفعلة:

- لقد رحل.. المؤشرات توضح على الجهاز توقف نبضه.

يصرخ فيها الأخير منهياً الجدال:

- نفذي الآن...!

تنظر له بدورها مستعجبة لتزيد الشحنات بيأس.. ينطق الدكتور "مايكل":

- مستعدين.. إطلاق.

تحول زر الأخضر إلى الأحمر مشيراً توقف النبض بالجسد الذي يدفع الشحنات داخله، لقد إزداد معدل الشحنة إلى ثلاثة أضعاف ليهتز معها الجسد الثمين بقوة لم يرها من قبل كريشة واهنة تتدافعها الرياح، عينته شاخصتان لأعلى، أطرافه تعبث بها الكهرباء دون أي شعور داخلي بها، نصف دقيقة كاملة وهذه الشحنات تغذي كل ذرة في جسده لتلهو بهذه الأرطال الثقيلة حتى سقطت قطرات دم أسفل رأس "ويلسون"، توقف "كرستين" الشحنة ليهمد الجسد تماماً، يقترب منه التمرجي محركاً القبعة الحديدية من فوق رأسه ليجد جوانبها الإسفنجية قد ذابت من ضغط الشحنات لتلتصق القضبان المعدنية بجلد المسكين حتى حرقت جلده ليسقط الدم منها.

يحدق "الدكتور" مايكل شاخصاً ببصره على جثمان الراحل "ويلسون" الهامد تماماً.. صدره هبط دون صعود.. بينما يخرج الزبد الأبيض من جانبي فمه لينساب على وجنتيه كرغاوي الصابون، ينحني جانبه يقيس نبضه ناطقاً بعدم تصديق لما حدث:

- أعيدا الشحنات!

يحدق التمرجي تجاهه مستغرباً أمره وهو يرى هذا السيل من الدماء الساقط أسفل رأسه وحالته التي يرثى لها لتجيبه

"كرستين" بنبرة هادئة لا تحمل أي أثر للشفقة نحو هذا المسكين الذي تعذب في لحظاته الأخيرة:

- لا فائدة.. لقد رحل.

ينظر لها "مايكل" مرتجفاً بدأت أوصاله في الإرتعاش فزعاً، لا يدري لماذا لم يفكر قبل اللجوء لهذه الجلسات؟ يندب حظه وعقله الغاضب الذى قرر أن هذا هو الحل الأنسب لتلك الحالة، لا يعلم ماذا عليه أن يفعل الآن؟ لقد قتل مريضاً بقراره الأهوج، قضى على حياة هذا المسكين بلا أي رحمة، الله يعلم كم تألم وهو يصارع لحظاته الأخيرة ليقف "مايكل" صامتاً في ثبات بينما قلبه يثب رعباً داخله، يحدق في تلك الجثة الضخمة التي رحلت روحها عنها بسببه، جبينه المتعرق وعينيه الشاخصة تصاحبه، الآن يشارك الراحل "ويلسون" في نظراته وهو يرتعد فزعاً بينما الأخير يناجيهم ألماً لا يقدر علقه على إيجاد حل حول هذه الجريمة التي صنعتها يده، هل بعد كل هذه السنوات من خبرته النفسية وصيته الذائع يقتل أحد مرضاه بقرار خاطئ؟!

تطلب "كرستين" من التمرجي أن يفك قيود الراحل "ويلسون" ناقلاً الجهاز خارج الغرفة إلى مكانه السابق ليوافق الأخير في صمت حزيناً على ما رآه أمام نصب عينيه لكنه لا يملك من نفسه شيئاً فهو لا يعلم ما تم هو الصواب أم الخطأ؟

فور أن تحرك التمرجي دافعاً الجهاز أمامه خارج الغرفة لتتابعه "كرستين" وهو يسير في الممر حتى خرج من الباب الرئيسي مغلقاً إياه خلفه تعود إلى الغرفة لتقف أمام "مايكل" الذي لا يزال يحدق بثبات في الجثة كما هو، تحدثه قائلة بثبات:

- لم تفعل شيئاً.. لقد حاولت علاجه ولم يفلح الأمر.

ينظر لها بضمير يمزقه نتيجة فعلته ليحدثها بصوت متحشرج:

- لقد قتلته..!

تقاطعه الأخيرة بصوت حذر هامس حتى لا يسمعها المرضى بالغرف المجاورة:

- اخفض صوتك! لا تقل هذا وإلا ستخسر عملك.. وربما تقضي باقي سنوات عمرك في السجن، تماسك وكأن شيئاً لم يكن.

يسألها متعجباً من ثباتها الانفعالي أمامه:

- ولكن كيف..؟

"كرستين" ناطقة بذات الهمس البارد:

- لقد حاولت علاجه...

تلقي بنظرها على الجثة الهامدة أسفل أقدامهما بإهمال

لتحدث "مايكل" دون النظر إليه:

- في الأخير.. هذا الأحمق من فعل هذا بنفسه.. لقد حذرناه مراراً من هذه النومة.. الآن سينام كما يحلو له للأبد!

ينصت "مايكل" لحديثها مهدئاً من روعه عندما وجدها تقف جواره مزيلة عنه شعوره بالذنب، لقد كان مذعوراً من وجودها، لقد رأت ما فعل وتعلم أنه أخطأ، لا يخشى من التمرجي شيئاً لأنه يدري جهله لكنه خشي هذه الممرضة التي تفهم جيداً ما يقوم به وعواقبه الوخيمة.

إلا أنه اطمأن لها عندما وجدها تضع له بعض الحلول ناطقة بكل بساطة وهدوء "أنه حاول مساعدته" أو هكذا ادعت.

لينظر لها وشبح إبتسامة يسري على شفتيه بعد أن هدأ قلبه المنقبض لتحدثه بدورها هامسة وهي تبتسم:

- أعلن زمن الوفاة..!

يضع الدكتور "مايكل" كفه داخل جيب معطفه مخرجاً مسجلاً صوتياً صغيرا يضغط على زر التسجيل مقرباً إياه من فمه لينطق بثقة يجاهد لإخراجها في نبرته وهو ينظر لها:

- اسم المريض "ويلسون جرين"

تاريخ اليوم "10 فبراير 1938"

زمن الوفاة "7:50 مساءً".

***

أغسطس 1936

منزل "ويلسون جرين"

- "لقد سئمت هذا الهراء"..!

صوت "مارلين" يصرخ ممتزجاً بغضب عاتٍ تتابع حديثها الصاخب ملقية إياه على مسامعه دون النظر له أو حتى أن توقن تأثير وقع هذه الكلمات على نفسه، يجلس هو على حافة الفراش بغرفة نومهما صامتاً منكس الرأس لأسفل في وضع أسير خابت آماله في البوح عما يمزق ثنيات قلبه مدركاً أن حديثه لن يزيد الأمر إلا سوءاً فيؤثر الصمت مشفقاً على نفسه وما تؤول إليه في حين تكمل هي بدورها في مرافعتها الصاخبة وكأنها تدافع بساحة القضاء عن مظلوم مُقبل على الإعدام مخرجة كلماتها كالأسهم المسنونة التي تصيب قلبه مباشرة فيعتصره الألم.

لا يدري هل هو ألم نفسي إثر حديثها الذي لا يحمل مثقال ذرة من الرحمة والشفقة على حاله؟ أم ألمه الجسدي نتيجة الصداع النصفي المزمن الذي يهز أركان عقله مقترباً من الإنفجار فيرغب لو ينام الآن ليهنأ ببضع سويعات مسروقة دون جدال مثل الذي يتلقاه الآن؟

كم يبغض أن يكون هو الطرف المنهزم في أي حوار يدور بينه وبين زوجته، يشعر بضيق يجتاح صدره عندما لا يجد

مفراً من هذا الجدال حتى أن يجد فرصة للرد للدفاع عن نفسه، فقط يمثل دوره كمؤدي صامت ينصاع مأموراً أسفل صريخ زوجته المتكرر، ينتظر أن تفرغ شحنتها السلبية تجاهه حتى تهدأ ليقبل بدوره على أكثر الأفعال سذاجة في مثل هذا الوقت.

"يحتضنها ليشعرها أنها محقة، يعتذر لها عن فعل لا يملك منه شيئاً".

"كم هو مغلوب على أمره".

ينظر لها بطرف عينه ليجدها تدور حول نفسها في دوائر هلامية داخل الغرفة، توجه حديثها ناحيته دون النظر إليه.. تصرخ.. تتشاجر مع الخواء لتكمل جرعتها المؤنبة له:

- "لقد مر أكثر من ثلاثة أشهر على هذا الحال وأنت لا تقبل على أي علاج، كل ليلة أستيقظ مفزوعة على نحيبك لأجدك واضعاً وجهك بالوسادة تختنق حتى أعاني في تعديل وضعيتك قبل أن تفقد روحك للأبد لولا عناية الرب بنا لكنت في عداد الأموات الآن".

"كم أخبرتك أن تحادثني عما تخفيه بجوفك.. أخبرني ولو مرة واحدة سبب فعلتك التي تقدم عليها كلما ذهبت للنوم.. لكنك كما تفعل الآن..

فقط تنظر لي بعين متحسرة كأنك تخفي سر عظيم لا تقدر على البوح به".

"أنا زوجتك.. ويحق لي أن أعلم ما تخفيه عني.. إذا لم تحادثني في كل ما يؤرقك.. فمن ستحادث إذاً؟

لو كنت تخفي عني سراً.. فمن بحق السماء يملك ثقتك عني لتبوح له وأنت تبتسم.. راضي.. وكأن هذا الغريب يحمل لك حباً أكثر مني.. حتى وإن كانت امرأة غيري فماذا قدمت لك بدورها أكثر مما قدمت لك"!

"أنت لا تفيدني بصمتك هذا.. كبرياؤك الذي يقتلك بأن تعترف أنك مريض لن يجدي نفعاً معك إذا لم أنقذك المرة القادمة.. أو بالأحرى هذه الليلة..

الآن بت أخاف أن أتأخر في جلستي مع أبنائنا تاركة إياك وحيداً بالغرفة.. أفزع لأهرول ناحيتك لكي أطمئن ما إذا أتتك النوبة بعد أم لا.. أشهق رعباً عندما أراك واضعاً وجهك بالوسادة.. لأبدأ في النحيب الصامت محاولة إنقاذ روحك..

ولكن الآن طفح الكيل".

لم يكن يسمعها أو بالأحرى قصد ألا ينصت لما تقوله، هو يحفظ هذه العبارات الواحدة تلو الأخرى عن ظهر قلب، مجرد أن يأتي الليل بعد أن يذهب الطفلين لمضجعهما وينغلق باب غرفة نومه معها حتى تبدأ الاسترسال في هذه العقبة التي تؤرق حياتها.

وليكون صريحاً مع نفسه فهي تؤرق حياته أيضاً.

كيف له أن يستمر على هذا المنوال، لقد زار أطباء عدة في الآونة الأخيرة ولم يرجح أحدهم هذه الحالة لمرض عضوي بل إن أحدهم نصحه بزيارة متخصصاً نفسياً.

ويا ليته لم يقل هذا أمام "مارلين".

لقد تمسكت بهذه الاستشارة كأنها حبل النجاة لها بعد أن ضربت بكل رأي آخر عرض الحائط موقنة أن العلاج الوحيد لحالته المعقدة تلك هي اللجوء للطب النفسي.

رغم حديثها المتكرر الذي جعله يفقد ثقته التامة بنفسه، كلماتها التي تحمل داخلها صخور مُلقاة لتهشم بها جدار روحه الواهن، تعنتها الغريب ودعوته بالمريض إلى أن وصل لأن نال لقب "المخبول" ذات مرة على لسانها إلا أنها محقة فيما تقول.

لقد عانت كثيراً معه لأشهر مضت وليالٍ مرت عليها محملة بالسواد، كل ليلة يقوم بهذه النومة الشاذة دون أن يشعر حتى يجد نفسه يختنق قاب قوسين أو أدنى من الموت لتصحو هي في لحظاته الأخيرة معيدة له روحه التي أقبلت على الرحيل أخيراً.

حقاً لا يدري سر هذا.

كل ما يتذكره أنه يكون نائماً في وضعيته الطبيعية ليقبل

نحو كابوس يغلفه من جميع الجوانب يقتله فزعاً، هذا الكابوس المقيم لا يحتوي على أماكن ولا يتخلله أشخاص يعرفهم أو بشر في العموم، فقط يجد نفسه ملقى داخل صندوق خشبي مظلم مقيدة أطرافه بإحكام تلقيه بعض الكفوف الضخمة بطريقة عشوائية داخل فوهة مظلمة، ينقلب هذا الصندوق جاعلاً وجهه يقابل التربة الطينية منغرساً داخلها بينما ظهره للسماء، يبدأ الاختناق محاولاً تعديل وضعيته لكن تمنعه تلك القيود.

يحدث شيء غريب كأنه يرى نفسه من زاوية أخرى وهو يلقى حتفه، يقف قرب هذه الفوهة ليحوطه الظلام الدامس من شتى الاتجاهات، بصعوبة يرى حوله هذه الشواهد الرخامية ثابتة، راسخة في الأرض لا تحركها الأعاصير الباردة التي تعصف بجسده الآن كأنها قمم جبلية صلبة، فقط يقشعر شعر جسده نتيجة هذا البرد القارس في حين يتسلل ضوء القمر الباهت ضعيفاً لينير له المشهد الذي يدور أمام نصب عينيه، يشخص ببصره ليجد خلف هذا الضباب الرمادي الثقيل تلك الكفوف الضخمة لكنه يجهل لمن تنتمي، تمسك هي بأطراف الصندوق الخشبي الضخم -كأن هذا الكابوس صنع الصندوق بهذا الحجم خصيصاً ليتناسب مع بدانته المفرطة- ثم يلقوا به داخل هذه الفوهة بعشوائية مفرطة لينكب على وجهه مقابلاً الثرى.

هنا ينفتح غطاء الصندوق لتخرج جثته الضخمة ساقطة

لأسفل، يحتضن وجهه التربة الطينية كاتماً أنفاسه بينما يقبع الصندوق فوقه فلا يرى أصحاب هذه الكفوف رقدته المضطربة ليبدؤوا بحمل المجاريف المعبئة بالطين ملقين بها فوقه، يقترب "ويلسون" بثقل جسده محاولاً الوصول إليهم.. يلهث.. يكاد يقع من أثر خطواته فوق التربة الطينية، يشعر أنهم يبعدوا عنه أميال طويلة وليست بضع خطوات حتى يصل إليهم ليحجب الضباب أجسادهم ومعالمهم كاشفاً عن كفوفهم فقط وهي تردم هذه الفوهة، يقترب أكثر ناظراً لأسفل فيجده.

لم يكن صندوقاً كما زعم.. إنه.. إنه تابوت!

يرى نعشه، يشخص ببصره لا يصدق، نعشه الملقى بداخله وهو لا يزال حياً، هذه الكفوف الضخمة تعود للحفارين محاولين إغلاق قبره في الأرض ليجد قبالته ذاك الحجر الرخامي حاملاً اسمه، إنه شاهد قبره الذي أعلن وفاته، يحاول أن يصرخ بكل قوته في هؤلاء الحفارين يدعوهم أن يتمهلوا فجثمانه راقداً على وجهه بالأسفل ينتحب راجياً إياهم أن يعدلوا من رقدته إن كانت رقدته الأخيرة فله الحق أن تكون مريحة له.

يظل يصرخ باكياً بحنجرة لا تساعده حتى كادت أن تنقطع أحباله الصوتية:

- إنقذووووووووووني.. أرجووووووكم!

يجيبه الصمت وحده.

حتى ينتهي هؤلاء من عملهم ثم تأتي أمواج الضباب الثقيلة لتغلف المحيط من حوله تعمي بصره لتذهب بعدها مخفية هذه الكفوف وأصحابها حينها يجلس "ويلسون" على ركبيته باكياً وحيداً وسط هذا الظلام المقبض لنفسه ثم يفتح عينيه على هزة جسده فيجد "مارلين" قد عدلت من نومته في الفراش وهي تلهث بشدة، يفتح فمه على مصراعيه محدقاً بفزع يحاول أن يسحب أكبر قدر من الهواء لرئتيه ثم يعود لطبيعته.

لم يخبر "ويلسون" أحد الأطباء الذين زارهم من قبل بهذا الكابوس، ظل يحتفظ به لنفسه، لقد بحث مراراً حول هذا الأمر ولم يثمر بحثه عن شيء، شعر أنه لو أخبرهم بهذا فسيعلنوا جنونه التام على الأقل هو الآن مجرد زائر لطبيب نفسي يحاول إدراك مشكلته باحثاً عن بعض الاضطرابات النفسية التي تؤثر عليه سلباً لا أكثر، في الأخير لم يصل لمرحلة الجنون، بالطبع لم يقبل على إخبار زوجته التي تبحث عن أي دليل لإثبات ضلاله فلو حادثها في هذا الأمر الذي يكنه بصدره فهو بمثابة اعتراف رسمي منه أنها كانت محقة منذ البداية عندما دعته للاستشارة النفسية وبذلك لن يقدر أبداً على جدالها في أموره من جديد.

وكأنه كان يفعل مسبقاً.

يخرجه من خواطره المؤرقة هدوء زوجته المفاجئ، ينظر لها هذه المرة متعجباً، يراها جالسة على المقعد المقابل للفراش واضعة كفيها على وجهها تنتحب بحرقة تمزق قلبه لتهمس بصوتها الحاني الذي افتقده منذ زمن باكية:

- "أنا أحبك..

ولكني لا أملك ما يساعدك.. لقد ظللت أراعيك لأشهر.. ليالٍ طوال لم أذق النوم وأنا أجلس جوارك في الفراش.. أربت على صدرك لأطمئن أنك بخير.. لا زلت تتنفس.. لا زلت حياً".

"لأحمد ربي على مرور هذه الليلة بخير لتأتي أخرى أعاني فيها معك.. أنت لا تخبرني بأي شيء سوى صمتك.. نظرتك تلك التي تمزقني.. لم أعهد أن أراك ضعيفاً.. لكنك تنظر لي وكأني جلادة أمزق جسدك بسوطي.. أنت لا تشعر بي.. أنا أرتجف بداخلي.. لا أستطيع صبراً على أمرك".

"لقد زرنا سوياً أطباء في شتى التخصصات.. جميعهم أقروا بصحة جسدك.. لقد نصحوك بالاتجاه للطب النفسي.. ورغم جدالك الذي أرهقني لفترة طويلة إلا أنك وافقت أخيراً.. ليستمر معك العلاج والجلسات النفسية لفترة ثم نجد لا شيء تغير.. ليقر الطبيب عجزه أمام حالتك وأن الحل الأخير لك هو إقامتك بمشفى عقلي لفترة..

لكنك منذ أن أخبرك بهذا وأنت تلعن كل شيء.. تغضب وتثور رافضاً هذه الخطوة.. عندما أحادثك تجلس صامتاً كالأموات.. لأظل أنهرك حتى لا أقدر على الإكمال ثم تعتذر لي"!

"أنا آسفة.. لكن هذه المرة لا أقدر على الغفران لك".

ظل "ويلسون" ينصت لها وهي تتجرع مرارة هزيمتها أمامه، يصمت بينما تنساب قطرات دموعه الحارة على وجنتيه، هي لا تدرك حجم معاناته مع نفسه، كم يتألم كل ليلة في نومته مما يراه حتى في يقظته يشعر بتأنيب ضميره عما أصابها من حزن وإرهاق نتيجة هذه النوبات التي تزوره دون هوادة.

هذه المرة عندما سمعها لم يكن يسرح بخياله بعيداً كما اعتاد أن يفعل في المرات السابقة ولكنه ظل ينصت لها بقلبه قبل أذنيه، وقع كلماتها كالحمم الحارقة على روحه، لقد عانت كثيراً وفاض بها الكيل ليقوم من جلسته مقترباً منها يحمل هزيمته على كتفيه كما لم يفعل من قبل، يمد كفه ناحيتها ليتردد في فعلته والدمع ينساب من عينيه، كبرياؤه لا يطاوعه على ما سيقوم به لكن ربما هذا الحل هو الأربح لكليهما حتى وإن واجه عذاباً مقيماً فهي لن تكون جزءاً منه بعد الآن.

ليربت بكفه على كتفها هامساً بصوت منكسر:

- معكِ حق.. لقد عذبتكِ كثيراً.. أنا أحبكِ يا "مارلين".. سأذهب للمشفى.

***

8 فبراير 1942

11:00 مساءً

منزل "مارك فولجر"

تقف أمام باب منزله مرتدية معطفها الرمادي الثقيل، يصل إلى أعلى ركبتيها كاشفة عن ساقين متناسقتين، شعرها مصفف بعناية، مترددة حول ما إذا تطرق بابه أم تعود أدراجها، لحظات من الشرود مضطربة، ظلت تقرر قدومها إلى هنا طوال الفترة الماضية، تعلم أنها أساءت معاملته في العزاء لكنه لم يوقن أن ما تحاول تحاشيه ليس بالأمر اليسير، أن تعترف بحبها له في ظل هذه الظروف القلقة. "مارك" يراه من زاويته فقط، دائماً ما يظن أنها تقلل من شأنه، اعترافها بعلاقتهما ليس بالأمر الجلل في حساباته لكنه يحمل عواقب وخيمة من ناحيتها، "إيما" ليست مستعدة لمقابلة أباً جديدا لها، رحيل والدتها الشهر الماضي يزيد من الثقل فوق أكتافها فكيف لها أن تترك كل هذا خلف ظهرها لتهرول ناحية متعتها الخاصة؟!

هي تحبه بحق وهذا ما جعلها تتنازل عن كبريائها وتأتي له الآن، ربما يتحادثا لحل تلك المعضلة.

تتخذ قرارها بالطرق عدة مرات متتالية على بابه منتظرة رده، يأتي لها صوت أقدامه من الداخل فاتحاً بابه معلناً

ظهوره من خلفه، ينظر "مارك" تجاهها صامتاً، يشعر باضطراب داخله ما بين اشتياقه لها، إعجابه بمظهرها الجذاب وعطرها المثير الذي يزكم أنفه وما بين أسفه تجاه طردها له من منزلها في آخر مرة تلاقيا تبادله "كاميرون" ذات النظرات الآسفة مطرقة رأسها لأسفل، هي تعلم تمام العلم أنه فور أن خرج من منزلها بهذه الطريقة الصامتة وهي ستواجه كبرياء أحد الملوك العتاة الذين يرفضون قبول هزيمتهم النكراء.

لتهمس له بصوت حاني يحمل مزيجاً من الأسف والندم:

- أنا آسفة.

يجيبها صمته المطبق ليتنحى جانباً مفسحاً لها الطريق لتدلف إلى الداخل، تهم بدورها بخطوات ثقيلة لكن في قرارة نفسها تعلم أنه يرغب بالحديث معها طالما سمح لها بالدخول وإلا كان أغلق الباب بوجهها لتكن صادقة مع نفسها "هي توقعت مثل هذا الفعل منه".

يغلق بابه عائداً إلى جلسته على الأريكة المقابلة لها.. يدعي عدم اهتمامه بتفاصيلها الفاتنة التي تخطف لُبه، يختلس بضع نظرات ناحيتها وكأنها لا تلحظ عينيه المملوئتين بالشبق تجاهها لتتحرك بدورها خطوتين واقفة أمامه مباشرة تنظر له أسفل ملقية على مسامعه سؤالها المفعم بالحب:

- هل ستظل على هذا الحال كثيراً؟!. لقد اشتقت إليك.

ينظر لوجهها أعلى ناطقاً بصوت ممزوج ما بين الغضب والسخرية:

- حقاً.. ولم هذا؟!

تتسائل بهدوء محاولة كبح غيظها، هي تدرك أنها ستواجه الكثير هذه الليلة من سخافاته:

- ماذا تعني يا "مارك"؟

يقابلها بنبرة خشنة تبدأ بالعلو:

- أعني أن هذا لم يكن ردك المرة السابقة.

ليكمل حديثه بنبرة ساخرة مائلاً بظهره للخلف متكئاً على الأريكة:

- أذكر أنكِ طردتيني من منزلك أمام الجميع..

تقاطعه "كاميرون" بغيظ:

- عن أي جميع تتحدث؟! تشعرني وكأنني أمسكت مكبراً للصوت لأقف وسط الجمع الغفير لأعلن لهم..

رافعة كفيها لأعلى بطريقة استعراضية:

- "يا أيها الكرام.. إنني أطلب من عشيقي الرحيل خارج منزلي أمام ناظريكم.. وأنتم على ذلك من الشاهدين".

لتسقط كفيها مجدداً ناطقة بأسى:

- أنت تصيبني بالغثيان حقاً.

يقف "مارك" أمامها ناطقاً بسخط:

- هل أتيتي بعد هذا الغياب لتسخري مني.. كم أنتِ متبجحة!

تقابله بحديثها اللائم ناظرة له مباشرة:

- أنت تعلم أن هذا ليس مقصدي.. ولكنني زعمت أنك ستتفهم موقفي..

تكمل جملتها ناظرة لأسفل بأسى:

- لكن يبدو أنني كنت مخطئة.

"مارك" متحركاً بضع خطوات بغضب تاركاً إياها خلفه متسائلاً:

- أتفهم موقفِك.. هه؟ تشعريني بالاشمئزاز من نفسي.. وكأنني جرذ تخشي الاعتراف بصلته أمام الآخرين.

تدور "كاميرون" بوجهها ناحيته لتحدثه بنبرتها الحادة:

- ماذا كنت تريدني أن أفعل.. أن تأتي لتعزيتي في رحيل والدتي لأحتضنك أمام الجميع.. هامسة بصوت حزين أن هذا هو حبيبي وكم أنا ممتنة لحضوره اليوم ليؤازرني في خسارتي؟!

يقابلها بضحكة ساخرة ناطقاً:

- أجل.. كيف لم أفطن لهذا؟ يا لي من أخرق! ربما يخبر أحدهم السيد "واطسن" الكريم!

تفقد "كاميرون" ثباتها لتحدثه بغضب ناظرة تجاهه:

- كفى سخرية تجاهه.. لا تنسى أنه كان زوجي!

يلتف ناحيتها ليقاطعها بسخط:

- كان.. الآن هو في عالم آخر.. وأنا باقي لكِ. أهكذا تعاملينني؟

"كاميرون" محاولة تهدئة مجرى الحديث:

- لقد تُوفي العام الماضي.. لا يزال الوقت مبكراً على أن يعلم الجميع بعلاقتنا.. عليك أن تعي هذا يا حبيبي.

"مارك" عائداً بنظرة تجاه الحائط قُبالته مجيباً بحزن:

- لا تنعتيني بحبيبكِ.. لا أرغب بسماعها مسروقة.. أنا لم أقم بجرم في حق البشرية.. لقد أحببتكِ.. ولكنكِ لا تبوحي بهذا الحُب كأنه لعنة.

تشعر "كاميرون" بمرارة ما يخفيه بصدره لترد آسفة:

- لا تقل هذا أبداً يا "مارك".. أنت حبيبي ولا أحد سواك.. لا تضخم الأمر..

لقد حدث هذا الموقف منذ العزاء.. مر قرابة الشهر ولم

نلتقي أو حتى نتحادث سوياً.. أنت تعلم أنني كنت حزينة لفقدانها ومضطربة في هذا الوقت.. ربما كان ردي جافاً تجاهك.. لكنه لم يكن من قلبي قط.

يعاتبها "مارك" بصوت هادئ منكسر:

- لا أتحدث عن هذه المرة بعينها.. ولكن منذ أن تعارفنا وأنتِ تتحاشي وجودي قريباً منكِ أمام الناظرين.. لقد أصبح هذا التجاهل يؤرقني.

"كاميرون" هامسة بحب حقيقي:

- حسناً يا حبيبي.. لنهدأ حتى نجد حلاً لهذا قريباً.

"مارك" ناطقاً بهزيمة:

- لا عليكِ.. يمكنكِ أن تفعلي ما تريدين.. لن أجبركِ على شيء.. عليكِ بالرحيل الآن.

"كاميرون" بصوت حزين:

- أنت لم تجبرني قط على شيء.. أنا أحبك يا "مارك" ولا أرغب أبداً بتركك.

"مارك" مقاطعاً بصوت خافت:

- أرجوكِ يا "كاميرون" دعيني وشأني الآن.. لستُ في مزاجٍ رائق.

تقترب منه بدورها بضع خطوات.. تفك أزرار معطفها

الثقيل كاشفة عن منامتها الحريرية التي تشف مفاتنها حتى إلتصقت بظهره.. تضع كفيها حول خصره محتضناه ورأسها يميل على كتفه.

تحدثه هامسة بصوت يفوح بعبق أنفاسها الساخنة الشبقة:

- هل تريدني أن أرحل حقاً!

يقشعر جسده ليلتف في مواجهتها، يحدق بنهم في ثنايا جسدها الذي يقطر أنوثة متأججة رغم عمرها الذي تعدى ربيع الشباب إلا أنها لا زالت تملك تفاصيلاً تجعل الرجال ينحنون راكعين أمام سلطان مفاتنها الفريدة.

فور أن رفع حدقتيه أعلى ثديها ليقابل عينيها الحالمتين فيه برغبة كامنة، تتلقفه خاطفة شفتيه بقبلة حارة هزت أركانه، يغمضا أعينهما ذائبين في عِشق يسدل لجامه على قلبيهما، ترفع كفيها لأعلى تلتف بهما حول رقبته بينما يقوم باعتصار خصرها جاذباً إياها داخل حضنه، يلثم شفتيها بحنين، يتذوق رحيقها بينما هي سابحة في عالم آخر، تخور جدرانه الدفاعية أمامها، ينسى كلماته المعاتبة لها، يتجاهل كل ما حدث من نُكران لذاته ملقياً بكل هذه المشاعر التي تنغص عليه لحظته الحالمة خلف ظهره ليبدل عدوانيته التي اكتسبها من سوء أفعالها الهوجاء بعشق دفين لها.

هو يحبها بحق ولا يقدر يوماً بالسماح لنفسه الإفلات من بين أحضانه مهما فعلت من حماقات، أياً ما تقوم به

من سخافات تثير حفيظته لن تقوى على إخفاء تعلقه بها.. بتفاصيلها.. بعطر جسدها.. عبق أنفاسها التي تأسره تحت وطأتها، هو يوقن ذلك في صميم قلبه وهي تعلم بدورها كيف تهدئ من ثورته.

استغرقت قبلتهما دقائق ينعم كل منهما بلذته المحببة تجاه الآخر حتى فتحا جفونهما تاركين أفواه بعضهما البعض بهدوء كأنهما يأبيا إنهاء هذه اللثمة التي ذابوا فيها عشقاً.

ليحتضنها "مارك" بعشق حاني بينما تنظر له لأعلى هائمة فيه ليهمس بصوت رقيق يهز أوصالها:

- أحبكِ يا "كاميرون".. مهما فعلتِ.

تنظر له "كاميرون" بثغر يبتسم وعينين حالمتين ناطقة بحب صادق:

- وأنا حقاً أعشقك يا "مارك".

يلتحم العشيقين في قُبلة ثانية شبقة يتجاذبا فيها كل منهما شفاه الآخر بلذة تثير مشاعرهما الدفينة، تنبعث حرارة جسديهما معلنة احتياجها الشديد لإكمال ما بدأوه، عليهما أن يطلقا أسر ما يكنوه من لهب يستعر داخل عروقهم، تزداد ثورة شهواتهم ليقوم "مارك" من فوره بإسقاط منامتها السوداء الحريرية من فوق كتفيها كاشفا جذعها كاملاً في حين تقوم "كاميرون" بفك أزرار سترته البيتية بنهم لينخلع تاركة له إكمال نزعه من يديه ذاهبة لأسفل خصره تجاه

سحاب بنطاله الذي يخفي ناراً متأججة خلفه، ينزل "مارك" بكفيه أسفل فخذيها يتحسسهما بنشوة عارمة ليرفعها على خصره حاضناً إياها مكملين قلبتهما التي يرتشفا فيها رحيق أنفاسهم اللاهثة.

يتحرك تجاه غرفة نومه، كل بضع خطوات يستند بها على إحدى الجدران ليزيد من التصاقه داخلها معتصراً مفاتنها لتتأوه "كاميرون" بنشوة تذيبها حتى وصلا إلى الفراش ليلقي بها أعلاه، تنظر له بثغر باسم تلعق بلسانها أطراف شفتيها ناظرة له بعينين مملوئتين بشهوة حيوانية، تناجيه أن يقبل ناحيتها سريعاً ليكمل الأخير نزع بنطاله ليصبح جزعه عارياً كما وُلِد، تبادره بنظرات مستعرة أسفل خصره لتغمز له بطرف عينها في خبث ليقترب منها بهدوء كمفترس يترقب لغنيمته حتى يظفر بها لينعم بمذاقها.

ترفع كفيها تجاهه مشيرة له بسبابتها أن يحضر لها سريعاً، يجذبها بنشوة لتسلم له روحها الثائرة وجسدها الهائج ينصاع لقوته، يتحرك "مارك" ليعتليها منحنياً يُقَبل وجنتيها هابطاً إلى رقبتها العاجية لتنهار صريعة أسفله هابطاً بكفه الخشن يعتصر ثديها الهلامي لتتأوه بغنج مكملاً رحلته في جسدها مهاجماً حصنها لتشهق "كاميرون" صارخة بمتعة لم تذقها منذ فترة طويلة، تحدق في سقف الغرفة بعينين جاحظتين وجسدها يرتعش، فمها مفتوح شاهقة تسحب المزيد من الهواء لصدرها الذي يعلو ويهبط

دون هوادة.

كم تعشق هذا الرجل.

لقد حُرِمت منه طوال الفترة السابقة تتجرع مرارة حاجتها لحبه وفحولته وحيدة بغرفتها.

لم تقدر على التخلي عنه.

لطالما ظلت تفكر فيه بكل جوارحها.

الآن هي أسيرة فحولته العاتية، ترقد واهنة أسفل سهمه الناري الذي يأرجحها بعنف لتحتضنه بشبق بينما الأخير ينظر لها لاهثاً وقطرات العرق تغزو جبينه كضبع في أقسى لحظات ثورانه ينعم أسفله بغنيمة تزيد من لهيبه الحارق، يقوم بالاندفاع أكثر ليخترق قلعتها برمحه الحديدي الذي لا ينكسر ولا يهدأ حتى يبلغ.

فترة لا تحصيها أحاسيسهم المتأججة ولا أجسادهم المتصلبة وهما يتقلبا فوق بعضهما البعض، يهتز الفراش أسفلهما معلناً عدم قدرته على تحمل تلك الحرب التي تدور أعلاه حتى وصلا إلى ذروتهما ليحتضنا بعضهما بينما اعتلت "كاميرون" فحولة محبوبها قابضين كفوف بعضهما بقوة شاهقين معاً، ينظرا بأعين محدقة وأطراف متصلبة، جذعيهما أصبحا كالأخشاب المثقلة حتى أفرغا شهوتهما التي تندفع كالحمم متأوهين بصوت عالٍ يمزق الجدران حتى هدآ بعدها لتزبح "كاميرون" جسدها المتعرق من فوقه فاتحاً

لها الأخير يده يحتضنها، يقبل جبينها في حنو مسبلين جفونهم ليذهبا في سبات عميق بعد جهد أطاح بهما.

***

15 فبراير 1960

3:10 نهاراً

مستشفى العاصمة

- سنحقنك بالمخدر الآن.. لن تشعر بشيء.

خرجت جملته بصوت هادئ كعادته من حنجرة طبيب خبير في مجال جراحة المخ قد بلغ عامه الواحد والثلاثين، رغم صغر سنه إلا أنه أثبت كفاءة عالية عن أقرانه لينعم بهذه الوظيفة المرموقة، دائماً ما يحب أن يطمئن مرضاه قبل أن يخوض أي عملية جراحية لهم، هكذا تعلم منذ سنوات، أن العامل النفسي لا يقل أهمية عن العلاج العضوي.

"المريض" بصوت واهن ناظراً تجاهه:

- حسناً يا دكتور.. أتمنى أن يؤتي هذا العناء ثماره.

الدكتور "روبرت" بنبرته الواثقة:

- نحن نفعل ما بوسعنا.. لا تقلق.. تفاءل خيراً.

يجيبه "المريض" بصوت واهن:

- لا أملك سوى الأمل الآن.

تتحرك إحدى "الممرضات" المساعدات بالمحقن، تقوم بوخزه في ذراعه لينساب المخدر داخل عروقه أثناء متابعة

"روبرت" لها بنظراته لثوانٍ معدودة حتى انتهت نازعة إبرتها ليوجه الأخير حديثه من خلف قناعه الطبي تجاه "المريض":

- حسناً.. هلا تعد لي من 10:1؟

يطاوعه "المريض" بجفون مثقلة:

- 1.. 2.. 3.. 4.....

ليغوص في سباته العميق، يتابع "الطبيب المساعد" نبضات قلبه من خلال شاشة الجهاز الموصلة أسلاكه فوق صدره ويتابع "روبرت" انتظام أنفاسه ناظراً باتجاه الكرة الإسفنجية التي تعلو وتهبط بانتظام معلنة ثبات أنفاسه ليعود إلى مساعده الذي لا يزال يفحص دقات قلبه على الشاشة.. لتصل إلى درجة (87) مشيراً أن يبدأ جراحته، يتقدم "روبرت" خطوتين ليقف قُبالة رأس المريض ضاغطاً على زر جانبي للفراش الطبي ليرتفع الجزء الذي حمل رأسه فيتمكن لتوه من رؤية تكوينه بشكل جلي، يمد يده ناحية "الممرضة" التي تقف جواره أمام طاولة صغيرة تفترش أعلاها منديلاً قماشي ثقيل يحمل فوقه أدوات الجراحة اللازمة.

يهمس "روبرت" آمراً:

- قلم التحديد؟

يتلقاه من يدها ليرسم بضع خطوط فوق رأس الحالة محدداً

مكان جراحته الدقيقة، يعيد أمره التالي:

- مشرط؟

تمد الأخيرة يدها به ليتلقفه "روبرت" خافضاً رأسه لأسفل محدقاً بتركيز، يحرك طرف المشرط قابضاً عليه بإحكام فوق تلك العلامات، تبرز بضع قطرات الدماء إثر الثقب، يدور بيده ممزقاً تلك الرقعة الجلدية ليضع المشرط الملطخ بالدماء على الجانب الآخر منه أعلى طاولة أخرى بعد أداء مهمته.

يمد كفه تجاه "الممرضة" آمراً:

- صحن؟

تمنحه إياه ليضعه أسفل الرأس مدلياً فيه رقعة الجلد الممزقة ثم يضعه جانباً، في اللحظة التالية تقترب منه "الممرضة" الأخرى ممسكة بمنديل معقم ليوجه "روبرت" رقبته ناحيتها مغمضاً عينيه حتى تمسح قطرات العرق التي برزت فوق جبينه ليعود إلى وضعيته آمراً:

- مثقاب؟

تحمل "الممرضة" مثقاباً معدنياً صغير الحجم دقيق الإبرة البارزة من فوهته ليتلقاه الأخير ثم يبدأ بغرزه في عظام الجمجمة الخلفي ضاغطاً على زر التشغيل ليدور ناثراً شظايا خفيفة إثر العظام المخترقة، كلما انتهى من جانب

يتجه للآخر ليثقبه بتركيز بالغ، يتابع تحرك رأس المثقاب ومقياسها المحدد لينظر تجاه "طبيبه المساعد" الذي بدوره يتأكد من نبضات القلب ومجرى التنفس ليشير أن كل شيء على ما يرام.

يكمل "روبرت" آمراً "الممرضة":

- شفاط؟

يحرك رأس الشفاط الرفيعة تجاه الجزء المجوف الذي قام بنزع غلافه العظمي ليخرج من خلفه خيط من الدماء ممزوج بسائل هلامي ناتج عن إفرازات المخ، يمتصها برأس الشفاط حتى لا تعيق مجرى عمليته.

مر ما يقرب من الساعة وهو يتلقى آلات حادة مختلفة من ممرضته ليحركها داخل هذا الفص من المخ، يوسع الفجوات ما بين أجزاء المخ ليقتطع جزء صغير محدد قد قاس حجمه المحدد بدقة قبل استئصال هذا الورم الذي أرقه بحثاً وأعاش مضيفه في عذاب مقيم ليعود بكفه تجاه "الممرضة" آمراً:

- محقن؟

يغرزه داخل الثغرة المحددة ليسحب مقدار ثلاث ملليمترات من السائل المخيخي، الغرفة من حوله صامتة سوى من دقات إنذار الجهاز الموصل بالقلب، الجميع يتابع عمله بتركيز بالغ ما بين مراجعة التنفس واستقرار الحالة،

من تحمل أدوات الجراحة بترتيب وأخيراً هذا الذي يقع على عاتقه مسؤولية استئصال ذاك الورم سريعاً دون أي ضرر لتمر تقريباً ساعة أخرى وقد أشرف "روبرت" على إنهاء جراحته ليبدأ بإعادة جزء العظام المستأصل إلى تجويفه مستخدماً بعض الدبابيس الطبية مع سائل لاصق مخصص لهذه المهمة ثم يستعيد تلك الرقعة الجلدية ليبدأ بتشذيبها بخيط مع باقي جلد الرأس معلناً إتمام العملية بنجاح ناظراً لمعاونيه ناطقاً بوقار يغلفه سعادة:

- يبدو أن الحظ حليفنا هذه المرة.

ليجيبه "مساعده" بنبرة تحمل ثقة:

- ليس الحظ فقط.. وإنما مهارتك يا دكتور "روبرت".

يخرج "روبرت" من غرفة العمليات نازعا قفازه المطاطي الأبيض الذي يحمل بقايا دماء الحالة ثم غطاء وجهه ومعطفه الطبي ليتحرك ناحية الحوض يغسل كفيه ووجهه المتعرق مغموراً بسعادة داخلية لنجاح هذه العملية بالذات، لقد عانى كثيراً مع تلك الحالة لأشهر، انقضت وهو يسعى للعديد من الفحوصات لتشخيصها ثم الأدوية حتى استقر على هذه الجراحة رغم ما كانت تحمله من مخاطر نحو وفاة "المريض" أثنائها لكنه نجى في النهاية وهذا ما يسعده بحق.

لا يدري هل هي قدراته حقاً وباعه الطويل في هذا المجال

أم ثقة مريضه الذي لطالما آمن به وبث داخله شعور بأنه الوحيد القادر على علاج ما فيه، الوحيد الذي يصلح لهذه المهمة التي إما أن تنجيه أو تودي بحياته.

لكن في نهاية المطاف ورغم كل الصعاب.. نجا.

يتجه إلى غرفة مكتبه ممكساً بمقبض الباب يلفه لينفرج أمامه خطوات هادئة ليجلس خلف مكتبه على مقعده المتحرك المريح لجسده، يميل بظهره إلى الوراء متأملاً السقف وابتسامة نصر تغزو شفتيه، دقائق مرت عليه وهو في هذا السكون ثابتاً على وضعيته مسنداً رأسه للوراء على كفيه، يعيد ترتيب الأحداث داخل عقله لسنوات مضت عندما ينتهي من عملية ناجحة أو حالة تولاها يقوم بهذه العادة من التأمل لتزيد عليه من الثقة والامتنان أنه أكمل واجبه مضيفاً لحصيلته الطبية مريضاً آخر أنقذ حياته التي كانت على المحك.

يعود بنظره للأسفل على سطح مكتبه، يجذب تركيزه ذلك المظروف الأسود الموضوع أمامه ليلتقطه بأصابعه، يقلب وجهيه باحثاً عن اسم مرسله أو علامة بريدية توضح كُنيته لكنه خالي تماماً لا يحمل أي معلومة تزيل غموضه سوى سواده القاتم وملمسه الخشن على عكس طبيعة مثل هذه المظاريف البريدية، يمسك فاتحة الطرود الحادة الموضوعة على مكتبه ليمزق بها طرف المظروف مخرجاً منه ورقة بيضاء مطوية تحمل ذات الملمس الخشن، ينظر داخل

الغلاف ليجده فارغاً ليعيد تركيزه نحو الورقة التي فردها، يقرأ فحواها بعينيه في تركيز.

لا يوجد بها سوى سطرين مخطوطين فقط.

"روبرت جون.. يوم 10 مارس.. الساعة 11:00 مساءً.. المشفى العقلي.. يجدر بك ألا تتأخر".

شعور مُقبض يجتاح صدره، هذا الخطاب الغامض ووصوله حتى مكتبه دون وجود أي دلالة على مرسله، الكلمات المقتضبة الغامضة، لونه الكاحل، ملمسه الخشن الذي يصيبه بقشعريرة!

ليهم من فوره خارجاً من مكتبه بخطوات ثابتة تحمل بعض التوتر متجهاً إلى "موظفة الاستقبال" بآخر الرواق ليقف أمامها متسائلاً بهدوء:

- من الذي دلف إلى مكتبي وأنا غائب؟

تجيبه "الموظفة" باستغراب:

- لا أحد يا دكتور "روبرت".. هل هناك خطبٌ ما؟

يحدق بها مستغرباً ليرفع كفه حاملاً المظروف أمام عينيها متسائلاً:

- إذاً من أين أتى هذا؟

تمسك به الأخيرة بتعجب ثم تقلبه في كفيها مجيبة دون

النظر "لروبرت":

- لا أدري ما هذا..!

تتوتر نبرة "روبرت" ليحدثها بحدة:

- هل أتى بريد باسمي اليوم.. الأمس.. أي وقت؟

تجيبه "الموظفة" بتأكيد:

- لا.. وإلا كنا سنعلمك به فوراً.

ليختطف "روبرت" المظروف من يدها محدقاً فيها بغضب لتعلو نبرته أكثر:

- إذاً.. أخبريني بحق السماء كيف أتى هذا الخطاب إلى مكتبي؟!

"الموظفة" بتوتر بالغ:

- لا أدري حقاً.. ولكنني واثقة من عدم اقتحام أحد مكت....

يقاطعها "روبرت" زاعقاً:

- هل تظنينني أبله لأصدق أن لا أحد طرق عتبات مكتبي؟!

تنظر له "الموظفة" صامتة ليكمل بدوره عباراته الغاضبة التي جذبت مسامع كل من حوله وظلوا يراقبون المشهد:

- يبدو أن هذا الخطاب مجهول الهوية قد سقط من السماء فوق سطح مكتبي.. أليس كذلك؟!

تحاول "الموظفة" جمع كلماتها لتنقذها "مديرة المستشفى" قادمة بنبرة حادة:

- ما الذي يحدث هنا.. ما سبب هذه الجلبة؟

يجيبها "روبرت" ناظراً إليها بصوته الصاخب:

- لقد وجدت هذا الخطاب على مكتبي.. وهذه الغافلة تقسم أنها لا تدري بأمره.

تمسك "المديرة" الخطاب من يده مخرجة الورقة المطوية داخله فاردة إياها، تقرأها في صمت للحظات يتابع فيها الأخير تحرك بؤبؤ عينيها على السطور لتعود بنظرها له ناطقة بهدوء:

- لا عليك يا دكتور "روبرت".. يبدو أنها مزحة سخيفة من أحد ما هنا.

يستشيط "روبرت" غيظاً من لا مبالاتها صارخاً:

- يا إلهي.. بهذه البساطة.. مجرد مزحة؟!

تعيد "المديرة" الخطاب إليه ليقبض عليه بغضب بينما تربت على كفه مهدئة من روعه لتحادثه بنبرة لائمة:

- أرجوك إهدأ.. لقد أثرت ذعر من حولك.. أنظر.

مشيرة بكفها حولها ليتابعها "روبرت" بعينيه.. نظرات الفزع التي تقابله من الأطباء والمرضى، أدرك أنه فقد أعصابه بشكل مفرط.

تكمل "المديرة" حديثها محاولة التخفيف عنه:

- ليس عليك أن تقلق من فعل طفولي كهذا.. لقد نجحت عمليتك الجراحية منذ قليل.. لقد تمنيت هذا منذ زمن لتنقذ حياة مريضك.. وقد فعلت.. ألا يستحق ذلك أن تبتهج؟

ينظر لعينيها بعد أن استعاد هدوءه نسبياً ليجيبها بصمته مؤيداً رأيها بإيماءة من رأسه ليضع الخطاب في جيب بنطاله مترنحاً إلى مكتبه في أسف.

***

18 فبراير 1960

11:40 مساءً

- هيا يا رجل.. لا تعاملني هكذا.

خرجت جملته واهنة راجية، يقف مهتزاً قليلاً مُسبل العينين أثر السموم التي بنت قصوراً بكليتيه لتعلن عن سطوة جنودها في دمه. شاباً يافعاً قارب على إنهاء خريفه السابع والعشرين –وإن جاز وصفه بأنه قضى سبعاً وعشرين عاماً من البؤس– سبعاً وعشرين خريفاً ضحل لولا هذا الضياع الذي جاوره كصديق وفي لنال الآن ربيع سنواته المنقضية، متوسط الطول، أشعث الشعر مهمل رغم لونه البني الداكن الذي يوحي ببقايا ترف زائل لم يتبقى منه القليل ليجود عنه، يرتدي سروالاً تعتليه كنزة ثقيلة تقيه دُفعات البرد المتتالية لهذه الليلة.

يقف منتظراً أن ينال مراده بمزيد من التوسل لأحد هاذين الحقيرين ضخمي البنية الذين يسمعا توسلاته بسادية بالغة.

ليجيبه هذا المدعو "براغ" الذي كان ينصت لتوسلاته بنبرة ساخطة:

- ارحل من هنا يا "بيتر" وكفاك ادعاءاً لهذه الليلة.

ليبادره "بيتر" الحديث بذات النبرة المنكسرة محاولاً

إقناعه:

- بحقك.. أنت تعلم أنه يمكنني أن أدفع لك كل ما تريد.. ألا تدري أن والدي طبيباً.. إنه يملك الك.....

ليقاطعه أحد الضخمين المدعو "إبس" باستخفاف ضاحكاً بطرف شفتيه:

- ماذا؟. والدك؟. هاا.. يبدو أن المخدر قد أكل من عقلك وشبع!

تقع جملته الساخرة على أذني "بيتر" لتفيقه برهة من هذيانه، ينظر تجاهه بعينين يحملا غضباً ممزوجاً بثقل في جفونه ليتمالك نفسه مجيباً:

- إلام ترمي بقولك هذا؟!

ليجيبه "براغ" محاولاً تهدئة حدة الأمور، حتى لا يدخل الجميع في مهاترات لن تفيد الاثنين بل ستؤدي بهم إلى نهاية ليست بالهانئة:

- لا يرمي لشيء يا "بيتر".. أنت رجل غُر.. لذا عليك بالانصراف الآن.

ليتدخل "إبس"، ذاك الرجل الضخم الذي يحمل قسمات وجه عابسة، عينيه الجاحظتين، صلعته المضيئة فور أن تنعكس عليها إنارة المصابيح، جسده الذي يحمل كماً من اللياقة البدينة كافية أن تطيح بجسد هذا الهزيل في طرفة

عين، ناطقاً موجهاً حديثه لزميله "براغ" بعصبية:

- إذاً.. هل سنترجى هذا السفيه كثيراً؟

ليجيبه "براغ" مهدئاً من روعه:

- تمالك أعصابك يا "إبس".. إنه سيرحل حالاً.

يقابله "إبس" بذات النبرات القاسية وحنجرته الغليظة:

- ألا ترى.. نحن نقف الآن في دوام الحراسة لهذا الملهى.. خلف هذا الباب يقبع مديرنا.. إذا اشتم فقط أننا نتجادل مع هذا الغلام حول بضع سطور من الكوكايين فلن ننال حتى قوتنا هذه الليلة السوداء.. ناهيك عما سيفعله بنا..

هل أنت مدرك لهذا؟!

وقبل أن يجيبه الأخير يتدخل "بيتر" مشيراً بحديثه تجاهه:

- لماذا تشعر بكل هذا الحنق يا "إبس".. فقط أريد ما قدمت لأجله لأذهب إلى حال سبيلي.

يتسائل "إبس" بصبرٍ نافذ ناظراً ناحيته بغضب:

- وماذا إن لم نعطك شيئاً.. ماذا أنت بفاعل؟

ينظر له "بيتر" بجفونه المثقلة واضعاً كفيه في جيوب كنزته ليدثر بها، بينما يلقي بكلماته في همس واثق:

- سأقطع لك قوتك.

ليضحك "إبس" بصوته المزعج متسائلاً وهو يلقي بنظراته تجاه شريكه:

- هاهاها.. حقاً.. وكيف تنوي على القيام بهذا؟

يجيبه "بيتر" بنبرته الواثقة التي تخلو من أي اضطراب وهو يحدق فيه مباشرةً:

- لقد منحتني الإجابة منذ ثوانٍ مضت!

ينظر "براغ" لذاك الفتى الذي يكاد أن يوقع نفسه في ورطة الآن لائماً، بينما يعود "إبس" بنظراته تجاه الضئيل محدقاً بغضب عارم، يقرب وجهه منه ليسأله ضاغطاً على أسنانه بقوة:

- هل تهددني يا فتى؟!

يقترب "بيتر" بوجهه أكثر ملقياً بثقة على مسامعه:

- هل تجد لها وصفاً آخر؟!

لم يكمل "بيتر" جملته ليكسو السواد عينيه، ثوان مرت متتالية لم يدري ماذا حدث، كل ما يذكره تهديده لذاك الضخم المتعجرف، ليقابله الأخير قابضاً على أصابع كفه الغليظة رافعاً إياها لأعلى، ليطيح بفك "بيتر" الهزيل مما جعله يتلقى تلك القبضة التي هزت أركان مخه شاعراً معها بفقدان بصره ليتهاوى جسده على الأرض إثر قوة القبضة سابحاً في تخيلاته لبرهة من الزمن قبل أن ينساب خيط

رفيع من الدماء أسفل فمه معلناً عن تشقق شفته السفلية، لا يسمع سوى طنين حاد بأذنيه.

بينما ينظر لأعلى برأسه تجاه هاذين الضخمين ليجد "براغ" يعنف "إبس" على فعلته، لا يصل لأذنيه ما يدور بينهما من عتاب لكنه يرى تحرك أيدي "براغ" اللامبالية في وجه "إبس" كأنه يلومه على ما أقبل عليه من تصرف أهوج.

يحاول "بيتر" الاعتدال في رقدته لتعود معها بعض الهمسات الصادرة من حنجرتي الضخمين، عينيه تحاول الثبات متجنبة الرؤية المشوشة التي أصابته، يتحامل على نفسه ماسحاً سيل الدماء بكُم كنزته ليقف أخيراً.

لم يدرك أنه بهذا الضعف أبداً.

ينال الشتائم واللكمات فقط من أجل حفنة من المال لا يملكها.

سنوات عمره المنقضية تحمل الكثير في جعبتها من مرارات الهزيمة التي تجرعها يوماً تلو الآخر.

لقد خاض نزالات كثيرة طوعاً وكرهاً ونال لكمات ثقيلة أكثر لكنه لم يعبأ بها أبداً وفي النهاية كان يسدد بعض هذه اللكمات للآخرين ليشعر معها أنهما متساويين.

لكن هذه المرة لم تكن اللكمة في وجهه بل في كرامته

التي مزقتها الإهانات.

لم يؤلمه خده المتورم الذي يتحسسه بكفه الآن، ما آلمه حقاً وحدته التي يعيشها.

حياته التي أصبحت سراب، لا أحد يعاونه على شيء.

لا عائلة.. لا صديق.. حتى والده الذي رحل وهو لا يزال في قرارة نفسه غير مصدق لترهات رحيله.

تنساب قطرات دمع حارة من عينيه، تسقط مشفقة على حاله وما آل إليه.

يشعر بكرهٍ عاتٍ تجاه هذا العالم القاسي نحوه.

لماذا يفعل به هذا!

لما يتعمد أن يكيل له اللكمات بهذه القسوة المفرطة؟!

هو يعلم أنه سئ.. تعيس.. منهزم.. لا يملك من نفسه شيئاً لكنه في الأخير لم يؤذي أحداً قط.

في قرارة نفسه يعلم أنه يملك قلباً ينبض حاملاً داخله شفقة على حاله وتعاسة لهيئته الرثة تلك.

لقد حاول مراراً أن يصلح من نفسه لكن باءت شتى محاولاته بالفشل ليقابله هذا الطريق ناحية جرعات المخدر التي سكنت جسده فارضة سطوتها اللانهائية ليصل به الحال الآن أن يُلقى أرضاً ممدداً إثر قبضة من أحد الفحول

الذي يرى في نفسه قوة وسلطة لم يملكها جسده الهزيل يوماً.

يحاول التماسك في وقفته، يصل إلى أذنيه حديثهما الصاخب أخيراً ليعاتب "براغ" شريكه:

- لماذا قمت بهذا يا "إبس"؟

ليرد الأخير بحنق:

- وماذا توقعت مني.. أن أسمعه يهددني لأرجوه ألا يفعل؟!

يكمل "براغ" حديثه متهكماً:

- قلت لك اهدأ.. أنت تعلم أنه لن يجرؤ على القيام بمثل هذه الحماقات.

ينظر له "إبس" ساخراً بنبرة تحمل بعض الغضب:

- لن أنتظره يفكر مجرد التفكير أنه قادر على مساومتي.

"براغ" مربتاً على كتفه هامساً بالقرب من أذنه:

- أنت تدري ما أصاب والده.. هذا المسكين يعيش حياة تعيسة أكثر مما تتخيل يا رجل.. لم يكن عليك القسوة تجاهه هكذا.

يخرج "إبس" ضحكة متهكمة في وجه الأخير ملقياً بحديثه خلف ظهره:

- هاها.. يا لقلبك الرحيم.. أنت لا تصلح أن تعمل حارساً ليلياً البتة.. ربما عليك أن ترتدي بذلة أنيقة ورابطة عنق مزركشة، ثم تحمل حقيبة أوراقك لتذهب كل صباح في الثامنة إلى مكتبك، يمكنك أيضاً أن تضع لافتة على بابه تحمل "السيد براغ للإستشارات النفسية وعطف الأمومة"!

"براغ" محاولاً التفادي عن سخافاته:

- لا تجعلني أبدأ يا "إبس"!

ليكمل "إبس" حديثه الساخر:

- ثم ماذا بعد ذلك.. هل إذا أتاك سكيراً لا يحمل المال ستسمح له بالولوج داخل عتبات الملهى.. حتى لا يُحرم من لذة الحياة أيها الكاهن المتواضع؟

"براغ" جازاً على أسنانه ناطقاً بنبرة حادة:

- "إبس".. كفى.

لينظر الأخير تجاه "بيتر" الذي يقف ممسكاً برأسه محاولاً الثبات عن هذا الدوار الذي أصابه، ليعود بنظره إلى "براغ" مكملاً تساؤلاته التي تخفي سخرية واضحة:

- أخبرني يا رجل.. ماذا تنوي الآن؟. هل ستمده بحصته من الكوكايين ثم تخبر مالكها أنها جرعة بسيطة اختلط عليك الأمر وتناسيتها مع أحد الزبائن دون حسابه وبالصدفة لا تتذكر حتى وجهه؟!

"براغ" معاتباً بغضب:

- تعلم أن هذا ليس من شيمي.

"إبس" مؤكداً على جملته:

- تبدو كذلك الآن.

يتجاهله "براغ" موقناً أنه لن ينتهي من سخافاته إذا ظل يجيبه، ليعدل عن مناقشته تاركاً إياه خلف ظهره مستديراً تجاه "بيتر" يقترب منه، يقف بهيئته الضخمة قُبالة وجهه ليحاول الأخير التركيز فيما سيحدث، يضع "براغ" كفه في جيب سترته عابثاً ليخرج ورقة مطوية بشكل مخروطي في حجم عُقلة الإصبع، مشيراً بها ناحية هذا الهزيل الذي فور أن رأها حدق فيها بعينيه في نهم، ليتلقفها سريعا قابضاً عليها بكفه كأنه يخشى أن يرجع "براغ" عن قراره.

بينما يحدثه الأخير محذراً بهدوء:

- هذه الجرعة لا أرغب بحسابها وسأتكفل بها من قوتي لكنها المرة الأولى والأخيرة لك، لا تحلم في تكرارها ولا تعد أدراجك إلى هنا مجدداً إلا إذا كنت تملك نقوداً بحوذتك.

والآن.. عليك بالركوض لأبعد نقطة تصل إليها.. قبل أن أُعدْل عن قراري..!

ليتمم "بيتر" برأسه موافقاً على كل ما تفوه به "براغ" وهو

يحدق في جرعته التي بيده، محركاً قدميه ليطلق عنانها إلى الريح، يهرول دون توقف يسابق خياله حتى اتخذ منحدراً نحو اليسار ليختفي عن أنظار الاثنين الناظرين تجاهه بصمت وكل منهما يحمل شعوراً خاصاً بجوفه.

ينطق "إبس" ناظراً ناحيته باستغراب جلي:

- الآن.. أنت فقدت صوابك تماماً.

ليعود "براغ" إلى وقفته السابقة بجوار الأخير مجيباً دون النظر إليه:

- اعتبرها منحة لزبون قديم تعثر عن سداد فواتيره.

***

لا يزال "بيتر" يهرول بأقصى سرعة رغم جسده الهزيل ورئتيه اللتين كادتا أن تنفجرا من أثر اضطراب أنفاسه اللاهثة إلا أنه لم يوقن أنه بمثل هذه الخفة يوماً، هل هي سعادته المفرطة؟ الدوبامين الذي يعبث بخلايا مخه لينعشه مما يزيد من غبطته ليحتضن الهواء المثلج في صدره وهو يسابق الريح كريشة خفيفة أم أنه تحذير "براغ" له لو لم يختفي من أمام ناظريه لأبعد مسافة يجده فيها سيعدل عن قراره الأحمق.

مجرد أن جال هذا الخاطر بعقله وجد نبضات قلبه تتسارع بقوة لتزيد حركة قدميه أكثر فأكثر دون أن يشعر، ينتهي من طريق ليدلف الآخر.. قطرات العرق برزت غزيرة على جبينه، يشعر بصقيعها إثر هذا البرد القارس الذي يكاد أن يجمدها حتى وجد أنه لو لم يتوقف الحين فلن تعاونه رئتيه على التنفس مجدداً ليدخل إلى طريقٍ ضيق بين بنايتين عاليتين لاهثاً، يصل إلى منتصفه حتى يجد صندوقاً من المخلفات معدنياً ضخم الهيئة، فيقرر المكوث جواره متخفياً تحت طيات ظلامه الذي ينشره عليه مختبئاً من كل شيء حتى ضوء القمر الرمادي.

يستند على الحائط بظهره ليسقط على فخذيه جالساً ينظر لأعلى فاغراً فاه، يسحب أنفاسه المتتابعة محاولاً التهدئة من روعه، يتأمل السُحُب الداكنة التي تسبح ببطئ في السماء تغشى ضوء القمر كل حين، ناشرة الظلام الدامس

على الكون من حوله، الظلام الذي لطالما أحببه فهو يجعله يقوم بكل شيء دون أن يلمحه أحد، دون أن يأتي له رقيب عتيد يحثه على عدم القيام بهذا، ويجدر به أن يفعل ذلك.

كم يكره هؤلاء المسيطرين على حياته وكأنهم جنود الله في الأرض، ينذروا الآخرين الساقطين في الشهوات والتهلُكة.

هؤلاء الذين نالوا سلطة –لم تكن يوماً ملكاً لهم– بأن يحكموا على الغرباء من منهم صالحاً ومن منهم أغواه الشيطان عن صراطه.

هدأت أنفاسه المتلاحقة ليعود بنظره لأسفل فاتحاً قبضة كفه المتعرقة، يجد تلك الورقة المطوية قد التصقت بتعرقاته الملحية، ينتزعها برفق حتى لا تتمزق فتسقط روحه صريعة جوارها، يفتح أطرافها برفق لتكشف عن جرعته من التِبر الأبيض الذي تكبد كل هذا العناء من أجله، يطوي الورقة من على الحواف لتتخذ شكلها المخروطي الأكثر دقة، يميلها على ظهر كفه الأخرى، ثم يهزها برفق حتى سقطت الحبات البيضاء عليها، يقرب ظهر كفه من إحدى فتحتي منخاره كاتماً الفتحة الأخرى ليجذب منتصف الجرعة تقريباً داخل مجرى تنفسه، ليهم بإغلاق هذه الفوهة المتشبعة معلناً عن قدوم دور الأخرى، جاذباً ما تبقى بقوة ليقبض على فتحتي تنفسه مانعاً الهواء لثواني معدودة حتى تتصاعد تلك الذرات السحرية إلى شرايين دماغه، ناظراً

لأعلى مسبلاً جفنيه في نشوة، أعصاب جسده تتشنج ليجز على أسنانه بينما تتخذ الجرعة مجراها المعتاد حتى وصلت لمسكنها الآمن داخل شرايين دمه. ليرتخي جسده بعدها تماماً، يتنفس الصعداء بعد العناء الطويل الذي ناله هذه الليلة حتى وصل إلى مبتغاه.

دقائق مرت عليه ثقيلة يشعر معها أنه يطفو فوق الأرض، أقدامه تعبث بالهواء أسفلها، ليفردها على طول الطريق أمامه، كم هو مثير هذا الشعور.

كأنك طائر يسبح بجناحيه في الفضاء لا يقدر أحد على الإمساك به، هذه الجرعات تجعله يعيش حلمه الذي تمناه، متناسياً حياته خلفه، لقد أصبح هو وهذه الحبات البيضاء شقيقين في مواجهة قُبح العالم أمامهما، يتعاونا داخل جسدٍ واحد ليمُتع كلٍ منهما الآخر دون مقابل.

يرغبا في السعادة.

السعادة فقط..!

ليعود من أحلامه الوردية فاتحاً جفنيه، ينظر لأسفل يلعق ما تبقى من حبات قليلة داخل الورقة بلسانه في نهم حتى لا يترك ذرة لم يتناولها ليندم عليها لاحقاً، قابضاً على الورقة بكفه ليرفع ذراعه عالياً ملقياً بها أمامه في إهمال، ليعود واضعاً كفه على الأرض يستند عليها محاولاً الوقوف من جلسته المتراخية، يتلمس بكفه شيئاً مبهم بجواره، يتخاذل

عن الوقوف ناظراً نحو هذا الشيء في الظلام محاولاً تبينه، يمسك به رافعاً إياه لأعلى حتى يكشف القمر عن ماهيته، ليجده خطاباً داكن اللون يغلفه السواد كما كل شيء من حوله، يمزق طرفه في لا مبالاة عابثاً بفحواه، ليخرج تلك الورقة الوحيدة المطوية داخله.. يفتحها محاولاً قراءة ما فيها لكن الظلام يطمث عينيه، حتى ضوء القمر الباهت لا يعينه سوى على إدراك أن هناك ما هو مكتوب فقط، لكن لا تفاصيل تُرى.

يحاول تحريك الورقة في شتى الإتجاهات ليكتسب بعض الرؤية، في حين تفاجئه الكلمات بالسطوع كأنها تنير نفسها دون الحاجة لمؤثر خارجي، الورقة تكتسب لوناً داكناً بينما الكلمات تضئ بالأبيض الواضح معلنة إياها قُبالة وجهته وجفونه المتثاقلة.

"بيتر جاك.. يوم 10 مارس.. الساعة 11:00 مساءً.. المشفى العقلي.. يجدر بك ألا تتأخر".

يقرأ هذه الكلمات المقتضبة دون فهم، ناظراُ إليها لثوان محاولاً التركيز حتى عادت إلى الخفوت من جديد، بينما يبتسم بدوره ببلاهة ضاحكاً بصوتٍ هامس متعب، ليحدث نفسه مشيراً بسبابته تجاه ورقة الجرعة المطوية بإهمال ملقاة أمامه، ناطقاً بسخرية:

- لولا أنني أمسك بهذا الخطاب في قبضتي.. لقلت أنكِ

أفقدتني عقلي.. لكن رغم عبثكِ بي الآن.. إلا أنكِ كنتِ تستحقي هذا العناء يا عزيزتي.. هاها!

***

7 أبريل 1938

7:00 صباحاً

المشفى العقلي

يجلس خلف مكتبه محملقاً ببعض الملفات الطبية حول الحالات المقيمة بالمشفى، مرتدياً نظارته الطبية التي تضفي عليه مزيداً من الهيبة العلمية، يمد كفه ممسكاً بكوب القهوة القابع في مواجهته ليرتشف منه قطرات صغيرة متتالية، يحتاج لأن يكون في أتم تركيزه هذا اليوم بالأخص، فهو مُقبل على زيارة هامة من اللجنة الرقابية.

كم يكره هذه الزيارات الرسمية، لطالما حملت في جعبتها التقارير المقلقة والأسئلة الرخيمة التي لا تحتاج إلى إجابات على قدر ما تحتاج إثبات عجزٍ ما تجاه رُكن ما بالمشفى، ليقابل بعدها الادعاءات القضائية ثم ينجرف إلى مناشدة أحد المحامين يبحثا سوياً عن حل ما يحمل أقل الخسائر، وغالباً ما تكون تركه لوظيفته وما تقدم إليه من إدارة جديدة بأن يتمسك بها.

يقطع كابوسه المزعج نقرات الباب لتخرجه من خيالاته، تدخل مساعدته لتخبره بتوتر مزعج محاولة التماسك قليلاً:

- لقد أتت اللجنة بالخارج.

يجيبها بثباتٍ مصطنع:

- حسناً.. دعيهم للدخول.

تخرج المساعدة بتؤدة بينما يقوم الأخير بتعديل جلسته محاولاً لم شتات نفسه، يدخل رجلين بزيهما التقليدي من بذلات سوداء، حاملين مجلدات مفتوحة، ينظران إليه ويلقيان التحية ببسمة مصطنعة وجدت طريقها على شفاههما دون النطق ببنت شفه، ليعودا سريعاً إلى النظر حولهما في كل ركن بأعين محدقة بتركيز، ينثرا بضع كلمات في مجلداتهم.. حتماً هي التقارير التي تحمل حياته على المحك!

يدلف من خلفهما بثوان سريعة ذاك الوقور في عقده الخامس، طويل القامة، منتصب الظهر، بعض التجاعيد التي تتناثر على وجهه تزيد من وقاره، يكسو الشيب رأسه، يسير في خطوات واثقة نحو المكتب في بذلته الأنيقة، بينما يقف "مايكل" بدوره ماداً كفه مصافحاً بابتسامة ودودة:

- أهلاً بحضرتك.. شرف لي زيارتك المتواضعة.

يصافحه الأخير مبتسماً، مجيباً بهدوء:

- أشكرك يا دكتور...

يجيبه "مايكل" بترحاب:

- "كلارك".. أُدعى "مايكل كلارك".. رئيس قسم التشخيص بالمشفى وإلى حدٍ ما مديرها الحالي.

يجبه الأخير:

- سعيد لمقابلتك يا دكتور "مايكل".. اسمي دكتور "إدوارد فيرن".. رئيس اللجنة الرقابية من المؤسسة.

"مايكل" باسماً بترحاب:

- أهلاً بسيادتك.. أرجوك تفضل بالجلوس.

"إدوارد" مجيباً:

- أشكرك.

"مايكل" محاولاً جذب أطراف الحديث:

- في موعدك بالضبط.. يا له من التزام.. خصوصاً وأننا لم نصل للثامنة صباحاً بعد.

"إدوارد" مجيباً بثقة ووقار:

- لدي منطق وحيد أسير به طوال حياتي.. إذا لم تقدر على أن تأتي في موعدك فلن تتمكن يوماً من الالتزام بشيء.

"مايكل" متعجباً بلطف:

- يبدو منطقاً قاسياً قليلاً.

"إدوارد" شارحاً بابتسامة:

- تخيل معي أنك إذا نمت مبكراً أتيت في موعدك الباكر صباحاً.. هذا شيء يدعو للملل حقاً.. فجميعنا نقوم بهذا.. ولكن إذا انجرفت نحو الساعات المتأخرة من الليل تعمل.. تجلس مع زوجتك.. أو حتى تتجرع بضع كؤوس من النبيذ التي تزيل عن كاهلك مشاق اليوم.. ثم تخلد إلى النوم بضع سويعات لا تغني شيئاً عن احتياج عقلك وبدنك.. لتستيقظ باليوم التالي وتسرع نحو حمامك أملاً بالإيفاق ثم تهرول داخل بذلتك إلى مقرك.. لتصل بموعدك المحدد..

هذا هو الجهد الحقيقي الذي عليك أن تحترمه بحياتك.. أليس كذلك؟

"مايكل" مستنكراً ببسمة هادئة:

- في الحقيقة أجدك متحاملاً على نفسك يا دكتور "إدوارد".

"إدوارد" متفهماً بنبرة واثقة تدل على خبرته:

- لا عليك يا دكتور.. لكل منا منطقه الخاص.. والآن ربما من الأفضل أن نتحرك نحو ما أتينا لأجله.

يجيبه "مايكل" قامعاً توتره:.

- بالطبع.. ولكن قبل أي شيء يمكنك أن تهنأ بكوب قهوتك.

"إدوارد" مقاطعاً بأدب:

- هذا لُطف كبير منك.. ولكن ما رأيك لو أتناولها أثناء جولتي بالمشفى؟

"مايكل" مجيباً بتوتر يسعى لإخفائه:

- ليكن ما تريد.

"إدوارد" منهياً حديثه إليهم بالنهوض:

- إذاً لنتحرك.

ينطلق الاثنين خارج الغرفة يتهامسا أطراف الحديث التقليدي، متوغلين داخل بنايات المشفى في حين يتابعهما ذات المحققين حاملي المجلدات، دون حديث أو انتباه لما يدور بين "مايكل" و"إدوارد"، فقط يقوما بعملهما في صمت، يتخذا إجراءاتهما الروتينية في تدوين شتى ملاحظاتهم داخل صفحات المجلدات، ينطق "إدوارد" بدوره جملته ناظراً حوله على الجدران النظيفة البراقة، ساحباً أنفاسه التي تحمل لأنفه رائحة المطهرات التي يبدو أنها أغرقت أرض المشفى لتبعث عن نظافتها:

- البناية رغم قدمها المعهود وضعف موارد الدعم لها إلا أنها نظيفة بحق.

يقابله "مايكل" مبتسماً بسعادة داخلية:

- هذا إطراء جميل منك يا دكتور "إدوارد".. كما تعلم فنحن نحاول أن نبذل قصارى جهدنا في حدود إمكانياتنا

المتاحة.

يكمل "إدوارد" حديثه دون النظر تجاهه:

- هذا جلي ويستحق الثناء.

لينتهيا الأربعة من سيرهم في الطرقات حتى يترجلوا نحو غرف النزلاء من المرضى، توقفهما إحدى الممرضات من الخلف منادية بأدب:

- القهوة كما رغبتم يا دكتور.

لتقبل بتمهل ناحيتهم حاملة صينية يقبع فوقها أربع فناجين، تتلقفها أيديهم مبتسمين بشكر، ليعود "إدوارد" من فوره ومن خلفه "مايكل" إلى استكمال دورته بالغرف، يلقي ببصره على المقيمين، بعضهم نائم في فراشه، والبعض الآخر يجلس قُرب النافذة بغرفته يتأمل الحديقة بالأسفل.

يباغت "إدوارد" الأخير بجملته:

- يبدو أنكم تعبتم كثيراً لتجعلوا النزلاء بهذا الشكل!

"مايكل" متسائلاً بقلق ناظراً نحوه:

- أستميحك عذراً.. لكن هلا أوضحت لي ما تقصده؟

يشير "إدوارد" بسبباته نحو النزلاء حاملاً شبح ابتسامة صفراء على شفتيه ناطقاً:

- انظر إليهم.. الأردية النظيفة ناصعة البياض.. رائحة

الصابون التي تفوح من أجسادهم تزكم أنفي.. يبدو أنك أعددت عدتك كاملة لمقابلتي.

بُهِت "مايكل" من هذا الاستنتاج الصادم لتظهر على قسمات وجهه علامات التوتر، مجيباً:

- أبداً.. ليس هذا الشأن.. وإنما حاولنا أن نجعلهم نظيفين.. تراءى لي أن هذا ما يجب أن يكونوا عليه دائماً.

"إدوارد" ضارباً رصاصته في صميم قلبه:

- دائماً.. هل أنت واثق من هذا؟

"مايكل" شاعراً بضيق بعد أن أغلق هذا المكير عليه الخناق:

- نحن لم نتعمد هذا.. بل دائماً ما يكونوا بهذه الحالة.

"إدوارد" يقاطعه بابتسامة مهدئة:

- تمالك نفسك.. جميعنا نتملق رؤساءنا حتى نصل لمبتغانا.

يصمت "مايكل" بدوره عن الحديث بعد أن وجد حلقه يجف من الكلمات المبررة والتي لن تصلح كما يبدو مع هذا المتعجرف، ليرتشف الأخير بضع قطرات من قدح قهوته ليخرج من الغرفة متجهاً للتالية، يفتح بابها مُقابلاً تلك العجوز الجالسة على حافة الفراش، تنظر له بعينين رمادية يكسوها الحزن، هزيلة الجسد، قاربت على عقدها السادس

على أقل تقدير، يجذبه صمتها المطبق وهيئتها الرثة رغم نظافة ملبسها..

الجميع هنا صامتون، كئيبون، يغلفهم الأسى والهزال.

لكن ليسوا كتلك العجوز.

ليلقي سؤاله على مسامع "مايكل" دون إزاحة ناظريه عنها:

- ما خطب هذه الحالة؟

يجيبه الأخير:

- إنها تدعى "كادي نوا".. أتت منذ فترة تقترب من ثلاث سنوات إلى المشفى إثر هلاوس أصابتها.. مما تسبب بعض التصرفات اللاعقلانية التي تؤرقها.. وانتهى بها المطاف داخل هذه الجدران آملين في تحسن حالتها.

"إدوارد" متسائلاً:

- ماذا عن أقاربها؟

- لا أحد يأتى لزيارتها.

- أصدقاؤها.. جيرانها.. أي أحد؟

"مايكل" مجيباً بوضوح:

- أبداً.

"إدوارد" ناظراً تجاهه متسائلاً:

- إذاً كيف أتت إلى هنا؟

"مايكل" مؤكداً:

- بمفردها.. بمحض إرادتها.

تظهر علامات التعجب على وجه "إدوارد" ليعود بالنظر إليها ملياً، ثم يكمل تساؤلاته:

- وهل هناك تحسن ملحوظ؟

"مايكل" بأسى مصطنع:

- للأسف.. ليس إلى الحد المطلوب.

ينظر له الأخير مستنكراً:

- وماذا يعني هذا؟!

يحاول "مايكل" الاسترسال في شرحه:

- أحياناً لا تزورها أي هلاوس وتصبح في حالة عقلية أقرب للتوازن نظراً لمثل من في عمرها.. وفي بعض الأوقات تصاب ببعض الاضطرابات الذهنية مصحوبة بحالة هياج.

ينظر له "إدوارد" ملياً في صمت، ثم يدور للخلف خارج عتبة الغرفة منهياً حديثه بقلة حيلة:

- حسناً

قبل أن يدلف خارج الغرفة يسمعها تناديه بصوتٍ واهن:

- أرجوك.

يعود مجدداً بنظره تجاهها، يسألها مستفهماً:

- عفواً.. ماذا قلتِ؟

تنظر له بثبات يحمل الكثير من خلفه، لتنساب قطرات دمعٍ من عينيها، تنطق حروفها بصوتٍ منكسر متوسلة:

- أرجوك.. ساعدني.

يتقدم ناحيتها خطوتين، ينحني بجزعه قُبالة وجهها، يسأل بعطف:

- ماذا بكِ.. أخبريني؟

العجوز "كادي":.....

صمتها المطبق أثار الريبة في نفسه، ليربت على كتفيها بحنو معيداً سؤاله:

- لا أقدر على معاونتك إن آثرتِ صمتك.

ترفع العجوز "كادي" كفها المرتعشة لأعلى ممسكة بطرف سترته جاذبة رأسه لأسفل حتى اقتربت من أذنه هامسة بالحديث تزداد معها نظرات القلق البادية بأعين الممرضة و"مايكل" على حدٍ سواء لتفلت العجوز كفها أخيراً في حين يرفع "إدوارد" رأسه لأعلى ناظراً لهما.

يبادر بسؤاله:

- أين هي المدعوة "ماكفي"؟

تنظر له الممرضة بقلق جلي على وجهها لتجيبه بتوتر:

- إنها أنا.. ما الخطب؟

يقابلها "إدوارد" بسؤاله بنبرة تحمل بعض الحنق:

- هل أنتي الممرضة المسؤولة عن هذه الحالة؟

تجيبه "ماكفي" محاولة التماسك:

- أدعى "ماكفى إيرن".. أشرف على العديد من الحالات وليست هذه فقط.

يقاطعها "إدوارد":

- وهل الجميع يشكو من قسوتك تجاههم.. أم تلك العجوز المسكينة من عبرت حاجز الخوف لتبادر بذلك؟

"ماكفي" مستنكرة بقلق:

- قسوتي.. عن أي شيء تتحدث يا دكتور "إدوارد"؟!

يقاطعها الأخير من جديد وقد ازداد الجو توتراً:

- هذه الحالة تشكو من قسوة تعاملك معها.. وعنفك في كل مرة تقومين بتنظيفها.. ألا تري أن جسدها لا يحمل كفيكِ الغليظتين أيتها الممرضة؟!

"ماكفي" بصوتٍ متهدج:

- لم أتعمد هذا أقسم لك.. إنها تكذب.

تصرخ العجوز محركة كفها بعشوائية وصوتٍ منكسر:

- بلى.. تفعل.

لتصطدم يدها بكوب القهوة الذي يحمله "إدوارد" ناثراً فحواه على بذلته، مما جعله يشتاط غضباً لهيئته الرثة الآن، ليصب غضبه الجم تجاه "ماكفي" بنبرة قاسية:

- يبدو أنهم أخطأوا بتعيينك هنا.. بل أخطأوا في تلقينك الرسالة الأولى لهذه المهنة!

تبدأ "ماكفي" في الانهيار ناطقة:

- أقسم لك لم أتعمد هذا.. فهي لم تنبهني يوماً.

تتدخل العجوز "كادي" بصوتٍ آسف لما أحدثته من شجار وفوضى على ثياب الأخير:

- أنا آسفة يا بني.. سامحني

ينظر لها "إدوارد" مبتسماً، يحاول التخفيف عنها:

- لا عليكِ.. أعدكِ أنها لن تفعل هذا مجدداً.

لينتقل ببصره ناحية "ماكفي" مكملاً حديثه المتحدي:

- هذا إن بقيت هنا على أي حال.

تحاول "ماكفي" مقاطعة حديثه وهي تتداعى:

- ولكن أنا.....

ولكن يقطع "مايكل" جملتها بدوره موجهاً حديثه إلى "إدوارد" محاولاً تهدئة الأمور قليلاً:

- حسناً.. لك كل الحق في هذا.. ولكن ما رأيك بالعودة إلى مكتبي.. هذا بالطبع إن كنت انتهيت بالفعل من جولتك.

ليجيبه "إدوارد" لائماً:

- يبدو أن ما رأيته كافياً لهذا اليوم!

يبتلع "مايكل" كلماته المؤنبة محاولاً التماسك، فهو في وضع لا يُحسد عليه، ليتطرق في الحديث:

- بالتأكيد أتفهم أمرك.

ليتحركا الاثنين تاركين ممر الغرف تجاه مكتب "مايكل" ومن خلفهما المحققين ذي المجلدات، هذين الفحلين يعملا كملائكة الحساب، يسجلا كل ما تقوم به وما يدور بخلدك، في حين يترك الجميع الممر لتبقى "ماكفي" واقفة أمام غرفة العجوز "كادي"، تحدق فيها بعينين يتطاير منهما الشرر، يحملا غضباً عاتياً لما نتج عن فعلتها، بينما تبادلها الأخيرة النظرات المرتعبة لما هو مقبل بعد هذا.

حتى أغلقت "ماكفي" باب الغرفة بعنف وهي تقبض عليه

بقوة، تاركة الممر مترجلة بخطى مثقلة، والغضب يستعر بجوفها.

***

يدلف أربعتهم داخل المكتب تباعاً، يتقدمهم "مايكل" في اتجاه مقعده خلف طاولته الوثيرة حتى جلس، ليتبعه "إدوارد" بالجلوس في المقعد المقابل له، يحاول "مايكل" التماسك حتى يفكر كيف يبدأ حديثه، هو يقبع في القالب الأخف وزناً الآن وكل كلمة سيعاقب عليها.

ليسرد بصوت هامس يحمل وقاراً تجاه "إدوارد":

- أستميحك عذراً.. هل يمكننا التحدث على انفراد؟

"إدوارد" مستنكراً:

- ولم هذا.. أهناك شيء لا يجب إدراجه هنا؟!

يوقن "مايكل" في قرارة نفسه أن هذا اللعوب يضربه في مقتل بكلماته، محاولاً ادعاء الثبات مجيباً:

- بالطبع لا.. لكنه أفضل لنا في الحديث بعد هذا التوتر

ينظر له "إدوارد" ملياً بحدقتين ثابتتين لثوانٍ، ثم ينطق قائلاً:

- حسناً.. إن كنت تصر على هذا.

"مايكل" يتنفس الصعداء:

- أشكرك على تفهمك.

يتجاهله "إدوارد" بدوره موجهاً نظره تجاه مساعديه، ليأمرهما قائلاً:

- يمكنكما الانتظار بالسيارة حتى أنهي حديثي مع الدكتور "مايكل".. فلقد انتهى عملنا هنا.

يوافقاه الاثنين معتدلين في وقفتهما ليترجلا خارج الغرفة دون نطق في صورة موضحة سطوة "إدوارد" العملية عليهما، ناشرين مبدأ ثقتهم العمياء في كل قولٍ وفعل يقبل عليه مديرهما، حتى أغلقا الباب من خلفهما في هدوء.

ليعود "إدوارد" برأسه إلى الأخير متسائلاً بخبث يملأ عينيه:

- حسناً.. لقد فرغت الغرفة على كلينا..

أطلعني على سرك الأعظم!

لقد تمادى هذا المتعجرف في وقاحته، لكن رغم ذلك لا يملك "مايكل" سوى الانصياع لأسلوبه الدنيء في الحديث، ليحاول جاهداً التماسك راسماً ابتسامة زائفة، ليتطرق في الحديث:

- أعلم أنه ما بدر من تلك الممرضة لهو خطأ فادح.. هي حقاً تستحق ما قررت على القيام به تجاهها.. لا ألومك حول قرارك.. فأنت محق تماماً..

ولكن...

يقاطعه "إدوارد" بصوته الرخيم:

- اهدأ.. لا تكن مستسلماً هكذا.. فأنا لم أنتوي تحويلها

للتحقيق مثلما ادعيت.

ينصدم "مايكل" مما يسمعه خارجاً من ثغر الأخير، ليدفعه الفضول مستنكراً:

- إذاً.. لماذا أخبرتها بهذا.. لقد كنت تثور غضباً منذ دقائق انقضت؟!

يرد "إدوارد" بسؤالٍ بلاغي يزيد من تعجب الأخير:

- وهل وجب علي أن أبلغها بمثل هذا القرار وأنا أحمل لها باقة من الزهور؟

"مايكل" وقد عصف الاندهاش بعقله:

- ماذا؟!

"إدوارد" يبتسم بطرف فمه مسترسلاً:

- لو لم أدعي الغضب أمام تلك العجوز الشمطاء لما اقتنعت أبداً أنني أقف جنباً بجنب في صفها.. وربما كان ذلك سيضعني في دائرة الشك من قِبل معاوني الذين أتيا معي.

"مايكل" وعلامات التساؤل تنتشر على قسمات وجهه:

- أنا لا أفهم شيئاً البتة.

يضحك "إدوارد" بدوره في ثقته المعهودة منذ أن دلف إلى المشفى، ليعود بالنظر إلى الأخير مكملاً حديثه

الهادئ:

- رغم مكانتك العلمية هنا.. إلا أنك لست بالنباغة التي توقعتها منك.

يصمت الأخير وقد بدأ بالفعل في فقدان تحكمه بأعصابه، ليقرأ "إدوارد" علامات غضبه مكملاً:

- سأشرح لك سريعاً..

لن أكون آخر من يأتي لك هنا من قِبل لجنة رقابية.. وإذا لم أتخذ مثل هذا الإجراء تجاه ممرضتك الساذجة.. لظلت تلك العجوز تتبوأ بهذه الشكوى في أقرب فرصة سانحة لها في حضور القادمين من بعدي..

وحقاً لا أضمن لك تعاطفهم معك هذه المرة مثلما أفعل الآن.

كما أن هذا سيضر من شفافيتي أمام مساعدي.. وأنت تعلم أنهما يدونا كل كبيرة وصغيرة منذ أن دلفت أقدامهم باب المشفى وحتى خروجي من هنا..

لذا فإن فعلي الصاخب هذا وحنقي سيثبت في التقارير أنني مُلِم بصحة المرضى.. كما العادة.

يقاطعه "مايكل" مستفهماً:

- أفهم من حديثك أنك لن تنوي الإضرار بالمشفى في تقريرك؟

"إدوارد" ضاحكاً:

- هاهاها.. لك هذا يا عزيزي.

تتهلل أسارير "مايكل" لتعبر الابتسامة شفتيه شاكراً بتلهف:

- لا أدري كيف أشكرك يا دكتور "إدوارد".. حقاً أدين لك بمعروف جلل.

"إدوارد" مقاطعاً بثبات:

- نعم.. وسترده لي الآن.

"مايكل" مستفهماً:

- ماذا؟!. لا أعي قولك..

"إدوارد" بنفاذ صبر:

- دكتور "مايكل".. أنت أقدم طبيب بهذا المشفى ولك باع كبير في هذا المجال.. وإلا لما سمحت الإدارة بترقيتك المدير المؤقت هنا.. أدرك جيداً أنك ترغب في أن تحذف لفظ "المؤقت" لتستبدلها ب"الدائم"، وتقريري يحمل اللفظين معاً.. إما أنك خبير وذو مكانة طبية وإدارية كافية لتسمح لك أن تحكم كل ما هو داخل هذه الجدران.. وإما..

يكمل "مايكل" جملته بيأس:

- أو أرجع طبيباً يعمل كالآخرين هنا كسابق عهدي.

يطلق "إدوارد" سهمه في روح الأخير:

- كم وددت هذا.. لكن أخشى أن تقريري مثلما يمكنه أن يرفع شأنك عنان السماء.. فهو على الجانب الآخر يملك أن يمحو اسمك من سجلات الأطباء..

بمعنى أوضح ستُسحب منك رخصتك الطبية..

ومن هنا ربما عليك البحث عن دوام جديد!

يحدق "مايكل" فيه بعينين غاضبتين، ناطقاً بحنق:

- هذه عملية ابتزاز حقيرة.

يجيبه "إدوارد" وثلج يقبع فوق صدره:

- أولم نأتي إلى هنا وتحدثني منفردين سوى لهذا الأمر.. أم أنك رغبت أن تطلعني على وجبتك المفضلة؟!

يشعر "مايكل" أنه بين شقي الرحى.. إما يقبل عرضه ويلبي طلبه.. أو يبدأ في جمع حاجياته من المكتب فور رحيل هذا الفظ من الباب..

لكنه لا يعلم حتى ماذا يريد منه بالضبط.

يأخذ "مايكل" نفساً عميقاً محاولاً تمالك أنفاسه المضطربة، موجهاً سؤاله:

- حسناً يا دكتور "إدوارد".. أفرغ ما في جعبتك.

"إدوارد" مبتسماً بطرف فمه في نصر، ناطقاً:

- الأمر بسيط.. لقد مررت بحالة طارئة منذ فترة واضطررت لوصف دواءاً لحالتها بخبرتي البسيطة.. ثم للأسف آثاره الجانبية دمرت خلايا مخها.. وتوفت.

"مايكل" يحثه على الإكمال:

- ثم؟

"إدوارد" مكملاً:

- هذا الأمر أثار الشبهات حولي.. وأريد تقريراً طبياً بأن هذا الدواء الذي قمت بوصفه ليس السبب في رحيلها.. وإنما هي أعراض حالتها المتأخرة.

"مايكل" متسائلاً وهو يدرك الإجابة:

- وأنت تريد هذا التقرير تحت إشرافي؟

"إدوارد" مستخفاً:

- في الحقيقة لا.. أريد منك إقناع إحدى الممرضات الجميلات من اللواتي يعملن هنا بقضاء ليلة غرامية معي..

لينطق بغضب واضح:

- بالطبع هذا ما أريده!

يتغاضى الأخير عن حديثه الساخر ليتطرق إلى سؤاله:

- وكيف لك أن تصف دواءاً لا توقن آثاره الجانبية وأنت خبير في الطب النفسي، ومن المفترض أنك مُلم بجميع جوانب الحالة؟

"إدوارد" مجيباً بهدوء:

- يمكنك القول بأني ترقيت كرئيساً للجان التفتيش منذ أعوم، وربما خانتني الذاكرة في ذكر هذه التفاصيل الدوائية.

"مايكل" بصوتٍ مضطرب:

- لكن أمرٌ كهذا يحمل خطراً على مكانتي الطبية.

"إدوارد" مضيفاً بهدوء مضيقاً عليه الخناق:

- نعم.. ولكنه أقل خسارة من أن تفقد رخصتك للأبد.

"مايكل":.....

"إدوارد" محاولاً التهدئة من روعه بنبرته الواثقة:

- لا تقلق يا عزيزي.. فالأمر لا يحتاج سوى لتوقيعك.. ولدي أصدقائي في قسم التحقيقات قادرين على إغلاق هذا الملف للأبد.

"مايكل" ينظر تجاهه بيأس:

- موافق.

"إدوارد" يعود لسخريته اللزجة:

- بهذه السرعة؟!

"مايكل" منهزماً:

- وهل تركت لي خياراً آخر؟!

"إدوارد" مجيباً بابتسامة مصطنعة:

- أحترم ذكاءك يا دكتور "مايكل".

ليضع "إدوارد" كفه داخل سترته مخرجاً ورقة مطوية، يفردها ماداً كفه بها إلى الأخير قائلاً بهدوء:

- التقرير جاهز.. ينتظر فقط توقيعك الكريم.

يرد "مايكل" وهو ينظر للتقرير متعجباً:

- أتيت به مسبقاً.. كأنك تعلم أنك ستنال مبتغاك!

"إدوارد" بهدوء:

- اعتدت أن أحتاط دائماً.

لينظر له "مايكل" مختلط الإحساس، لا يدري هل يمقته لأنه أوقع به بهذه البساطة أم ينتقم من تلك الممرضة الحمقاء التي أجبرته على خوض هذه الصفقة السوداء، ربما هو يشتاط غيظاً لدهاء هذا الماكر وإدارة الأمور لصالحه.

يمد كفه ملتقطاً قلماً ثم يوقع التقرير بإهمال، ثم يعيده إلى الأخير الذي يتلقفه بابتسامة هادئة.

يقاطعه "مايكل" متسائلاً:

- إذا سمحت لي يا دكتور "إدوارد".. ماذا إن لم تتحدث لك العجوز "كادي".

أقصد إذا لم يحدث هذا الفصل الذي منحك امتياز موقفك وممارسة سلطتك علي الآن.. كيف كنت ستنجو بفعلتك؟

"إدوارد" مجيباً وهو يطوي التقرير ليدسه بجيبه:

- صدقني عزيزي.. لا شيء أسهل من اصطياد الأخطاء خلفك.. لا تنسى أن المشفى عتيق ومعداته ضئيلة وربما ليست صالحة للاستخدام كما ذكرت سابقاً.. ناهيك عن حالات النزلاء المتأخرة.. ومعاناتهم التي تبدو جلية على وجوههم.

"مايكل" بصوتٍ منهزم:

- إذاً أنت قادم وتعلم أنك ستنجز مهمتك؟

"إدوارد" منهياً هذا الحديث المشفق قائماً من جلسته:

- نعم.. شيء من هذا القبيل.. والآن إاذن لي بالانصراف.

يقف "مايكل" ذاهباً معه باتجاه الباب ليفتحه له، ليهم بسؤاله الأخير كأنه خطر على باله تواً:

- عفواً.. سؤال أخير..

ماذا عن جلستنا الآن.. ألا يدعو ذلك للشك من قِبل معاونيك بالأسفل؟

"إدوارد" مبتسماً ليجيبه ساخراً:

- إذاً وبرجاحة عقلك لماذا غضبت على تلك الممرضة.. فور نزولي سأخبرهم أنك فقط حاولت الاعتذار لي عما بدر من تلك الحمقاء.. راجياً ألا يؤثر ذلك سلباً في التقرير.. وبالطبع لا يملكا إلا تصديقي..

فقط لأني سأخبرهم أني رفضت وأتيقن أن هذا تم تدوينه في أوراقهم اليوم.

"مايكل" بقلق:

- وبعد ذلك؟

"إدوارد" متأففاً:

- سيعود التقرير إلي وأُلقي به في سلة قمامتي الخاصة أسفل طاولة مكتبي.. أفهمت أم ليس بعد؟!

"مايكل" شاعراً بضيق إثر غباؤه:

- فهمت.. على أي حال أشكرك.

"إدوارد" مبتسماً بتصنع ليسير بخطوات واثقة داخل الممر مشيراً بيده للخلف:

- إلى اللقاء عزيزي "مايكل".

ليكمل سيره حتى دلف إلى درجات السلم تاركاً "مايكل" يتنفس الصعداء عائداً داخل غرفة مكتبه، مختلج المشاعر ما بين حالة الابتزاز التي جرت له الآن وانسحاق كبريائه تحت وطأة أقدام هذا الشيطان، وبين سعادته أنه سينال مكانته الراقية ليدير المشفى، مشفاه العزيز الذي قضى عمره به، رغم إحساسه المرير بالهزيمة لكنه لم يخرج من هذه المعركة خالي الوفاض.

يجلس على مقعده مسنداً ظهره للخلف، حتى طرأت على خاطره تلك الساذجة "ماكفي"، يود لو يخبرها أنها في مأمن من فقدان عملها هذه المرة، لكن شرارة الغضب التي تشتعل داخل جوفه إثر الابتزاز الناتج عن أفعالها منذ البداية يجعله يتراجع عن قراره في هدوء بالها المضطرب لما ستلاقيه.

ربما يمكن لهذا السر أن يختبئ لعدة أيام حتى يذيقها من القلق ما أذاقته من هزيمة، ثم يعود كل شيء إلى مجراه الطبيعي.

***

الساعة 12:00 مساءً

ترقد العجوز "كادي" أعلى فراشها في صمت، تتدثر أسفل الغطاء من ثلج هذه الأمسية القاحلة فقد دق جرس النوم منذ ساعتين والجميع يغُط في ثباتٍ عميق أو هكذا جال بخاطرها.

رغم هذا الهدوء الذي لا يقطعه سوى هفيف الرياح بالخارج، هذا الظلام المطبق بالممر ومن ثم غرفتها إلا أنها لا تقدر على أن يغمض لها جفن، لا تزال تراجع ما قامت به من حماقات هذا الصباح، لم يجدر بها أن تصل المعضلة إلى هذه الدرجة من التعقيد، ربما كان عليها التحمل قليلاً.

ولكن إلى متى؟!

لعل من الأفضل لو أبلغت أحد الأطباء بما يحدث تجاهها من تعنيف، لكن من سيصدقها، هذه العجوز الخرفة التي لطالما توهمت الخيالات وكوابيس اليقظة التي عايشتها ولم يؤمن بها أحد، هل حقاً كان سيوافقها أحد أياً كان من هو على ما ستجهر به؟

هل توهمت ولو طرف جفن أن البعض سيوقن أن هذه الممرضة متحجرة القلب تتلذذ بآلامها؟! حتماً لا.

ولن يكون أبداً.

لكن في الأخير ما قامت به رحمها من هذه الممرضة

وأفعالها لكن في قرارة نفسها لماذا تشعر أن الأسوء يحذو خطواته تجاهها، هناك هاجس دفين يجتاح خاطرها بأن ما تحمله الفترة القادمة لهو الجحيم بعينه، ألهذه الدرجة تخشى تلك الشمطاء؟!

أحقاً وصل بها الفزع لأن تتخيل خطاها قادمة خلف هذا الباب؟!

أم أنها فقط بدأت في أن تطلق لخيالها العنان حتى يفقد اتزانه؟!

لتتدثر أسفل الغطاء رافعة إياه أعلى وجهها حتى يصل إلى عينيها المحدقتين نحو الباب المغلق عليها منتظرة إما انفراجه أو رحيل هذه الهواجس طي النسيان لتنعم بنومٍ هانئ.

ولكن يبدو أن هاجسها لم يكن محض خيال.

ليتحرك مقبض الباب تجاه عقارب الساعة ببطئ منفرجاً في هدوء قاتل كسكين حاد يسير فوق حنجرتها بثقل عتيد، يظهر من خلفه ذلك الظلام الواقف في سكون، لا تتبين ملامحه إثر ظلام غرفتها الذي يتعاون مع ظلام الممر مخرجاً هذا الكيان في صورته المرجفة. اللعنة على هذه الأبواب الموصدة، لطالما وضعها حظها التعس داخل إحدى هذه الغرف، كم تمنت الآن لو أنها تقيم بتلك الغرف التي توصد بأبواب حديدية منفرجة كالقضبان بالدور العلوي،

حينها كانت ستدرك إن كان هناك من يقف أمام غرفتها منذ الوهلة الأولى وليس كما الحال الآن تضطرب ما بين إذا كان هناك أحدهم يقف أم أنها خيالات.

حتى تحركت إحدى كفيه نحو قابس الكهرباء ليكشف المصباح عنها!

إنها.. إنها "ماكفي"!

تقف أمامها بزيها التمريضي الأبيض كما اعتادت أن تراها به، تستند بجانبها على الحائط المواجه للباب، تتربع بكفيها ناظرة تجاه تلك العجوز المرتجفة في خوف.

وجهها صلب لا يحمل أي علامات توحي بما تشعر به ناحيتها الآن، ملامحها ساكنة لا تميل نحو الغضب ولو بالقليل، بالطبع الحنق والكراهية هما الشعورين الطاغيين على "ماكفي" تجاه هذه العجوز البائسة لكن رغم ذلك تشبه في ثباتها أوجه الموتى الخاوية من كل شيء وأي شيء.

تتباعها العجوز "كادي" محدقة فيها برعب في حين ترتعش كفيها الممسكتين بأطراف الغطاء حتى ابتسمت..

تمتد شفتي "ماكفي" على الجانبين معلنة عن ابتسامة حانية تخلو من كل المشاعر سوى الحنان، مما جعل العجوز تنتابها الريبة لتقابلها الأخيرة بسؤالٍ ليس بالمعتاد هنا بل لم تسمعه طوال فترة إقامتها بهذا المشفى وبين تلك الجدران

الأربعة:

- لماذا أنتِ مستيقظة إلى هذه الساعة يا "كادي"؟

تجيبها العجوز بنبرة هامسة متقطعة:

- لا شيء.. لا شيء.

تعتدل "ماكفي" في وقفتها متجهة بخطوات مثقلة داخل الغرفة، تتساءل بذات الابتسامة الهادئة:

- هل أنتِ على ما يرام؟

يقابلها صمت العجوز التي تتابع تحركها حتى أصبحت قُبالتها، تنادي عليها "ماكفي" بنبرة منبهة هادئة:

- "كادي".. "كادي".. هل أنتِ بخير؟!

تستعيد الأخيرة رشدها لتفيق من خيالاتها مجيبة:

- أجل.. أجل أنا بخير.

تتسائل "ماكفي" بتعجب:

- إذاً.. لماذا أنتِ مستيقظة لهذا الوقت.. وماذا عن رعشة يديكِ تلك؟

"كادي" ناطقة بهمسٍ يكاد يُسمع:

- فقط.. مرتعبة.

"ماكفي" عاقدة حاجبيها:

- مرتعبة.. مما؟

"كادي" محدقة تجاهها:

- منكِ!

"ماكفي" مستنكرة:

- مني.. ولم هذا؟

العجوز مكملة بقلق بادي على صوتها:

- لما فعلته بالصباح.

تتحرك "ماكفي" تجاه المقعد المقابل للفراش لتسحبه بالقرب منها، تجلس عليه راخية جسدها لتنطق ببسمة لا مبالية:

- تقصدين تحويلي إلى التحقيق.. لا عليكِ.. أنتِ لم تخطئي..

العجوز مكملة برعب:

- أنا حقاً لم أنتوي هذا لكِ أبداَ.

تقاطعها "ماكفي" ناظرة لها بحنو:

- أعلم هذا.. في الأخير أنا من أخطأت بقسوتي معكِ.. وعلي أن أتقبل جزاء سوءتي.

"كادي" هامسة بقلق:

- إذاً.. لن تعاقبيني على إفشائي فعلتك؟

تضحك "ماكفي" بصوتٍ هادئ مجيبة:

- لن أفعل هذه المرة.. تريثي أيتها العجوز.. هاهاها.

تنزاح علامات القلق عن وجه "كادي" ليحل محلها التعجب هامسة:

- غريب هذا!

"ماكفي" متسائلة بملامحها الباسمة:

- وما الغريب في الأمر؟

"كادي" مسترسلة:

- لقد وشيت بكِ.. أفقدتكِ عملك.. وأنتِ حتى لا تنهريني على فعلتي.. بل لا تعاتبيني من الأساس.. وكأنه ليس بالأمر الجلل لكِ.

"ماكفي" مجيبة بابتسامتها الحانية:

- أنا لست بهذا السوء كما تزعمين.. أعترف أني كنت قاسية جداً معكِ وأنتِ تحملتني حتى فاض بكِ الكيل.. لذلك لا ألومك على فعلتك.. في الحقيقة أنا من جلبت لكِ الألم أولاً.

تهدأ ملامح "كادي" تماماً وتتبدل لتميل إلى التعاطف مع الأخيرة، هامسة بطمأنينة:

- أشكرك حقاً على رحمتك.. وأواسيكِ على فقدانك عملك.

"ماكفي" باسمة بحنوٍ بالغ:

- لا عليكِ.. لم أفقده بعد.. فقط نرجو من الله أن يمر الأمر بأقل الخسائر.

"كادي" داعية بثغرٍ باسم:

- أتمنى لكِ هذا يا بنيتي.

"ماكفي" منحنية برأسها قليلاً تجاه العجوز ناطقة بهمسٍ حزين:

- أتيت الآن لكي أرجوكِ أن تغفري لي عما بدر مني سلفاً.. حقاً لم أتعمد هذا.

"كادي" مطمأنة بحنو أمٍ لابنتها النادمة:

- بالطبع أسامحك يا بنيتي.. لكلٍ منا أخطاؤه.. وعلينا أن نتغافل عنها حتى يمكن أن نستكمل حياتنا معاً.

"ماكفي" باسمة بعطف:

- كم أنتِ نقية أيتها العجوز.

"كادي" مداعبة بغبطة:

- لستُ بهذا العجز بعد.

تجيبها "ماكفي" ساخرة:

- أممم.. أحدهم تمكر هنا.

"كادي" مبتسمة:

- في السِن فقط.

تعتدل "ماكفي" من جلستها لتقف مقتربة من الفراش:

- حسناً.. يكفي مزاح.. لدينا صباح الغد لنحكي حول هذا الأمر.. والآن عليكِ أن تنالي قسطاً من النوم.

"كادي" هامسة:

- حسناً.. أراكِ بالصباح.

تقترب منها "ماكفي" منحنية واضعة قُبلة حانية على جبينها، لتعتدل بعدها هامسة بابتسامة:

- أحلام سعيدة.

ترد العجوز بحنو:

- أنا آسفة يا صغيرتي.

لتجيبها "ماكفي" بذات ابتسامتها الهادئة:

- حتماً أنتِ كذلك!

تختطف في نهاية جملتها الوسادة القابعة أسفل رأس العجوز التي لم تقدر على إدراك ما يحدث، لتجد فقط

الظلام يغلف الجو من حولها، أنفاسها اللاهثة تضيق شيئاً فشيئاً، لقد جرت الثواني سريعة و"ماكفي" تقبض بكفيها على أطراف الوسادة القطنية لتضغط بها فوق وجه العجوز الواهنة بكل عزمها، في حين تقابلها الأخيرة محاولة التحرك بأطرافها لتخدش معصم "ماكفي" التي لا تبالي مكملة مهمتها، جسد المسكينة يرتعش بشدة ليهتز معها الفراش، تحاول أن تنال قسطاً من الهواء الذي انتهى من رئتيها، أعصابها تشتد، جسدها يرتجف بعنف، واهنة هي لا تضاهي ضغطات "ماكفي" الثقيلة.

دقائق مرت سريعة على "ماكفي" وعيناها تستعر غضباً وغيظاً يظهر جلياً على ملامح وجهها، بينما هي تمر كالدهر على العجوز التي تعاني في وهن أسفل الوسادة، حتى بدأت تهدأ الارتعاشات تدريجياً لتسقط كفيها الممسكتين بمعصمي الأخيرة وتسكن تماماً.

تستمر "ماكفي" بعدها بثوان ضاغطة بكل قوتها، كأنها لا تعطي أي فرصة لتلك العجوز في العودة إلى الحياة من جديد، لتحرك الوسادة من فوق وجهها بعد أن أيقنت ثباتها، كاشفة عن فمها المنفرج وعيناها المحدقتين بفزع، لتقبض "ماكفي" على فمها وتغلقه ثم تسبل رموشها، رافعة رأسها أعلى لتضع الوسادة أسفله، تعدل من غطائها المبعثر ليعود كل شيء لسابق عهده.

تتحرك بهدوء ساحبة مقعدها إلى مكانه السابق بجانب

الحائط، تتقدم خارج الغرفة، تطفئ قابس الكهرباء ليغلف الظلام المحيط، تلقي بنظرة أخيرة على ذلك الجثمان الساكن في رقدته، ثم تغلق الباب من خلفها في هدوءٍ بالغ وتسير بخُطوات خفيفة كأنها لا تلمس الأرض عابرة الممر.

***

11 مارس 1935

3:00 صباحاً

منزل" كادي نوا"

لقد أمسى الأمر صعباً..

لا يحُتمل..

عقلها لم يعد قادراً الاستمرار في تقبل كل ما يسري حولها من هواجس.

باتت حياتها جحيماً لا يُطاق.

هي لا تدري حتى في أي عالمٍ تعيش، هل هو واقعها الذي يحذو حذوها وتسير فيه كما يسير البشر إلى أن يرحلوا في سلام؟

أم هو الواقع الافتراضي الذي فرضته عليها تلك الكوابيس والغيبيات التي منحتها دور البطولة المطلقة لتقتطف زهرة روحها؟

هي ليست عجوز، ولم تحمل هذه الصفة يوماً طوال حياتها، لطالما كانت تملك نضرة قلبٍ في ربيع شبابه.

من أفتى بأن الكِبَر هو شيب الرأس وهزالة الجسد وإنحناءة الظهر، لم تكن التجاعيد التي استوطنت بوجهها

وضعف بصرها هم دليل قاطع على وهنها، لطالما أيقنت طوال حياتها أن القلب هو من يُحكم عليه ما إن كان لا يزال في ربيعه يافعاً أم هَرِم ليعجز منتظراً الفناء الأخير.

لقد ظلت طوال حياتها تعيش وحيدة، تحادث نفسها، تناجي خيالاتها، تؤنس وحدتها ببضع الترانيم المطمئنة لقلبها حتى تشعر أنها لا زالت على قيد الحياة، وعلى الجانب الآخر لم يطرق اليأس بابها كما هو الآن.

لو حدثها أحدهم منذ عقودٍ انقضت عن حزنها الدفين وسكون قلبها الذي يؤرقها الحين لما صدقته، لعلها تدعوه بالمخبول، فكم من عابر سبيل في حياتها حثها على عدم الوحدة فهي تجلب الجنون معها، لكنها لم تكن يوماً من المنصتين.

لكن واحسرتاه..

هي يحدث معها الآن وبكل تفصيلة فيه.

لم تلد ابنة من نطفتها ترعاها في أيامها الصعبة، لم يشاركها الحظ زوج حنون يشيبا سوياً في مواجهة الحياة والعمر المنقضي، حتى أبسط الجيران لم يمنُّوا عليها بالسؤال.

وحيدة هي كتائهة بالصحراء ضلت الطريق عمداً، تتصيدها خيالات الوحدة التي قلبت موازين حياتها رأساً على عقب، لقد لجأت لعقاقير عدة، سعيت للاختلاء بروحها حتى تهدأ،

ولكنه للأسف لم يجدي نفعاً قط، تلك الهلاوس تصيبها بالجنون، الكوابيس المتتالية تمزق طيات قلبها رعباً، الهمسات التي تناديها لتصحو فزعة من نومتها ليلاً فتجد الظلام هو ضيفها الثقيل الذي لا يفارقها، الخطوات التي تشعر بها تركض في أرجاء المنزل دون هوادة، لتبحث في كل ركن عن مصدرها.

وكما المعتاد.. تبوء محاولاتها بالفشل.

لقد بدأ الأمر منذ عامين.

مجرد بضع كوابيس تنغص عليها نومتها تصحو مفزوعة منها شاعرة بالاختناق، تظل قابعة أعلى فراشها لبضع دقائق محاولة التركيز ولم شتاتها، ثم تخلد من جديد إلى ثباتها، إلا أن هذه الكوابيس تطورت مع الأيام حتى أصبحت تلازمها في كل وقت تخلد فيه إلى النوم، ولا تقتصر فقط على الليل كما هو المعتاد مع الجميع.

لا يهم..

ما يهم حقاً هو ما تراه أسفل ستار تلك الكوابيس، كأنها تائهة بأرضٍ صحراوية جافة في ذروة الحر القائظ والشمس القانية، وأناس كُثُر يسعون خلفها، أجسادهم محترقة كالهشيم، وجوههم سوداء لا معالم لها، يتسارع بعضهم البعض ليظفر بها، يهبطون مسرعين بأقدامٍ رفيعة لا تمت للبشر بصلة فوق هضابٍ عالية، لتهرول العجوز _بجسدها

الذي لا يقوى على مجاراتها_ محاولة الهرب منهم، قلبها الذي يثب من جوفه كاد أن يتوقف ذات مرة، حتى تأوي إلى جبلٍ يعصمها منهم، تمسك بكفيها في صخوره البارزة محاولة التسلق، تلهث في ألمٍ ساحق يجتاح رئتيها حتى تصل إلى قمته بعد أن كادت تسقط عدة مرات لتنظر لهم من أعلى مرتجفة وهم يسعون للصعود تجاهها.

إلا أنها سقطت في إحدى المرات وهي تصعد، لتنجرف لأسفل حتى هوت على الأرض مرتطمة بقوة جعلت عظامها تئن عذاباً، لتهجم عليها هذه الكائنات ممزقين أطرافها بقسوة، ثم تصرخ ألماً لتصحو من نومها محدقة عينيها بفزع.

هذه إحدى كوابيسها التي تؤرقها، لتنتقل بعدها إلى رؤية أخرى تصور لها أرضاً خواء يحفها اللاشيء من شتى الجوانب، هذه المرة يكون الظلام هو سيد الرؤية، سرمدياً، القمر الرمادي يلقي بضوئه الخافت كاشفاً لها عن بُعد خطواتٍ قليلة منها، تدور حولها دون وجهة محددة، تبدأ بعدها الهمسات في الصعود، لا تدري كنهها، يختلط عليها الأمر ما بين أطفال تجهش بالبكاء ونساء يصرخن بألمٍ يمزق الفؤاد، لا مفر تهرب إليه.

يزداد الهمس حِدة حتى يكاد أن يصم أذنيها، تجد نفسها ترفع كفيها لأعلى واضعة إياهما على أذنيها، تسعى لحجب هذا الصرير القاتل والمقبض لقلبها، تغمض عينيها محاولة

الإغفال عنه، تركع بركبتيها أرضاً راجية أن يكف أصحاب هذه الحناجر المعذبة عن فعلتهم تلك، لكنهم يقابلونها بعنادٍ بالغ، ليزيد الهمس والنحيب شيئاً فشيئا مما يرغهما على أن تجهش بالبكاء.

تتكور على نفسها في الأرض كجنين، تصرخ بصوتٍ يمزق حنجرتها:

- كفـــــــــــــــى.

لتستيقظ فتجد نفسها راقدة فوق فراشها تتعرق لاهثة في ضيق.

ما يجعل هذه الكوابيس تحمل غرابة شديدة هو أن مشاهدها التي تتوالى لا تدري سرها، وإنما هي دائماً تكون وحيدة بها، لا يؤنسها أحد، وكأن الكابوس ينقل واقعها إلى الخيال.

دائماً ما تكون تائهة في الفضاء، ربما هو منزلها الضخم العتيق.

جسدها.. حتى جسدها يكون واهناً وقد بلغت من العمر عتياً، لا تأتي صورتها أبداً في عمر الشباب، يافعة تملك قدراً من النضر والطاقة الذين يساعداها على الركض والهروب من تلك الكائنات والهمسات التي تجهلها، وإنما هي عجوز دائماً، الخيال كما الواقع.

هذه الكوابيس صُنعت خصيصاً لتريها عجزها وما آلت إليه في أواخر حياتها!

ويا ليته انتهى الأمر إلى هذا الحد...

وإنما تطور ليسلك منحدراً أشد قسوة، باتت تسمع حثيثهم داخل الجدران، كلما دلفت إلى غرفة بمنزلها العتيق تشعر أنهم يتهامسون، بحثت عنهم في الردهة.. القبو.. الحديقة.. لا أثر لوجودهم، فور أن يهدأ النهار بصخبه المعتاد ويسدل الغروب ستاره تبدأ معه الهمسات، كوابيسها تتحقق أمام عينيها، تظل كل ليلة تعاني إثر هذا الحثيث، النحيب الذي يصاحبها، الأرواح المعذبة، حتى تطبق كفيها بقوة على أذنيها لتبكي بمرارة كما لم تفعل من قبل، عاجزة عن أي فعل تقبل عليه ينجدها مما هي فيه... حتى تغفو.

لقد بات الجلوس بمفردها أمراً تمقته، مفزع تستوحشه، مجرد قدوم الليل بخطواته المثقلة يكسبها انقباضة بقلبها، تبدأ معه اللعنات، همسات.. صرخات.. عذاب.. ثم خطواتهم الراكضة بالمنزل، تشعر أنهم يطوفون حولها، يقشعر بدنها وتنتصب شعيراته لتجد معها هذه الخطوات الثقيلة تحوم بالجوار.

تماماً كما يهرولون تجاهها في الكوابيس.

ليس لها من أحدٍ تناشده، لا تعرف شخصاً تطلعه على ما

يؤرقها.

ها هي الآن تقبع فوق فراشها، مدثرة بغطائها، تدمع في صمت، جسدها متعرق وأنفاسها لاهثة إثر هذه الكوابيس التي زارتها منذ قليل، لا تملك من نفسها شيئاً سوى الشفقة على حالها، حتى جيرانها لا يعينونها، بل لم يتعاملوا معها يوماً، الجميع يراها عجوز خرفة لا تتفوه سوى بأقاويل من نسج خيالها المتعفن من وحدته، إذاً فلا داعي لأن يسمعوها...

ولا داعي لأن تسرد هي معاناتها.

ربما ليس لديها حلاً سوى أن ترحل عن هذا البيت الذي يحوي في جعبته كل ما يثير حفيظتها، ويقتل قلبها ببطئٍ بالغ، على الرغم من أنها أقامت لعقود فيه ولم يخطر عليه خاطرة، وهذا ما يقلقها، هل إذا رحلت ستنعم براحة أم خيالها يصنع كل هذا وهو رفيقها أينما كانت،

هي لا تملك رفاهية التفكير الآن، وعليها أن ترحل صباحاً إلى أي مكان تقيم فيه لا تكون بمفردها، فالأمر لا يُحتمل ولم تعد هي قادرة على الصمود، فقد تهاوت عروشها.

تثني العجوز قدميها متربعة، تحني رأسها إلى أسفل، ضامة كفيها أسفل ذقنها، تغلق جفنيها دامعة في صمت لتصلي إلى ربها وتتضرع له، لعله ينجيها من هذا العذاب، فقط بضع سويعات في هذا الجحيم المظلم حتى تشرق

الشمس وتهم بالرحيل من هذه اللعنة التي أصابتها.

ترتل داعية في خفوت:

"إلهي..

أرجوك أعني على ما أنا فيه..

لقد اختلط علي الأمر وأصبحت هشة تذروها الرياح..

لا أدري هل ما يحدث من حولي حقيقة أم سراب..

أحقاً أعيش هذا الخبال، أم أنها هلاوس عقلي ووحدتي القاتلة..

إلهي..

لطالما قبلتني بقبحي وعصياني أسفل طيات رحمتك، حتى تهدأ روحي..

لتجرني نفسي العاصية إلى هزائمي من جديد..

لقد أمست روحي هزيلة..

تتساقط دموعي الحارة لتنهمر كطيرٍ فُك أسره..

إلهي..

أنت الزاوية الدافئة والمطمئنة لي وسط هذا الصقيع..

أتيت لك راجية.. واهنة.. وكُلي آثام وضعف..

أنا عبدتك تناشدك بكل ما أُوتيت من ظُلُمات..

بكل ما أُوتيت من فزع..

بكل ما أُوتيت من روعٍ قابعٍ داخلي..

وحدك تدري كيف هي حاجتي لك..

وكيف هي نفسي العاهرة لم تسحبني يوماً نحو طريقك المُنجي..

أتوسل إليك أن تأخذ بيدي..

ارحمني من تدابير عقلي الذي كاد أن يُجَن..

يا الله..

يا الله..

إنك الرحيم بي.. ولا سواك".

***

أبريل 1942

11:15 صباحاً

منزل العجوز "أنطوانيت"

تقف متأملة الحديقة الخلفية للمنزل من وراء النافذة الزجاجية، صامتة، ساكنة كشواهد القبور، تتابع بعينيها ذاك اليعسوب الذي يعبث بالحشائش الخضراء مرحاً، تداعب أشعة الشمس وجهها فتجبرها على أن تُثقل جفنيها متحاشية ضوءها الساطع، صمتها الظاهري هذا يحمل اضطرابات ثقيلة داخل جوفها، منذ أن رحلت والدتها قبل بضعة أشهر وهناك ما يؤرق حياتها على الدوام، شيء ما غامض يسعى خلفها، وسابقاً نال من ابنتها "إيما" المسكينة.

تتذكر بداية الأمر عندما سمعت صريخ مفزع من صغيرتها يوم رحيل "ماريتشا"، عندها هرع الجمع الغفير نحو مصدر الصوت، كانت "كاميرون" تتقدم خطواتهم يقودها شعور داخلي لا تدري كنهه نحو غرفة والدتها الراحلة، لتدلف عتباتها مقابلة الصغيرة "إيما" ترتعش فزعاً، وجوارها صديقتها المقربة "كلير" تنظر محدقة برعب، ما رأوه قد أصابهم بالهلع حتى أجهشا الاثنتين بالبكاء وقتها، لتحاول "كاميرون" تهدأتهم متساءلة عما جرى، فتجيبها "إيما" أخيراً بصوتٍ متهدج "أنها وجدت تلك اللعبة تتحرك"،

لتشير تجاه ذاك اللوح المعدني الخاص بوالدتها، حتى أدرك الجمع أنها هواجس طفلة.. ويمر الموقف بسلام.

إلا أن الأمر تطور قليلاً في جنازة الراحلة "ماريتشا" عندما أقبلت الصغيرة "إيما" نحو القبر لتودع جدتها الحبيبة، ملقية بزهرتها أعلى نعشها، لتسقط أرضاً مرتجفة، تحدق بعينين جاحظتين نحو النعش في رعبٍ حقيقي لا تدري "كاميرون" سره، حتى أفصحت الصغيرة عما تخيلته من أفاعيل يُجَن لها العقل، لتسعى "كاميرون" بمعاونة العجوز "أنطوانيت" في تهدئة روع الصغيرة، مدعية أن كل هذا ما هو إلا هواجس من نسج خيالها الطفولي، هذه فقط لأن الصغيرة كانت متعلقة جداً بجدتها، لم تكن تفارقها قط، مما جعل رحيلها لهو أمراً ليس بالهين على خُلد تلك الصغيرة، هذا ما اقنعت "كاميرون" نفسها به في وقتها، لكنها وفي قرارة نفسها أحست أن هناك شيء غامض لا تدريه بعد، هناك صورة ضبابية مبهمة تخفي سراً يحمل الكثير مما يحدث حولها ومن ناحية ابنتها.

هناك ما جعلها توقن أن العجوز "أنطوانيت" تخفي سراً ما في جعبتها، هي لا زالت تتذكر ملامح وجهها الجامدة يوم الجنازة، وبالأخص عندما احتضنت الصغيرة "إيما" بعد نوبة الهلع التي أصابتها، وقتها كانت قسمات وجهها صلبة، جامدة، لا توحي بأي تعجب أو حتى قلق مما روته الصغيرة، ولكن بعد أن رحل ثلاثتهم بدأت ملامح القلق ترتسم على

وجه العجوز "أنطوانيت" بوضوح، مما جعل "كاميرون" تؤثر الصمت في ذاك الحين حتى يأتي وقت الحديث عنه.

إلى أن زادت الأمور حدة وبدأت التصرفات الغريبة تحدث لصغيرتها "إيما" وهي داخل المنزل، بعض الكوابيس المفزعة التي كانت الراحلة "ماريتشا" جزءاً لا يتجزأ منها، الشعور المقبض الذي يقبع بباطن المنزل يُشعر "كاميرون" بالاختناق كثيراً، غرفة والدتها الموصدة منذ رحيلها، في بعض الأوقات تشعر وكأن أحدهم بداخلها، يصدر بعض الحثيث، لكنها لم تقدر أبداً على الولوج داخلها، وكأن هناك ما يمنعها في قرارة نفسها، لطالما اجتاحها شعور مقبض يحثها على الابتعاد عن هذه الغرفة وما تحويه خلف بابها المغلق.

الكثير من هذه الأفاعيل التي أمست تؤرق حياتها وتزيد من انهيار صغيرتها "إيما" نفسياً حتى ذبلت، هذا ما جعل "كاميرون" تأتي بدورها لزيارة العجوز "أنطوانيت" اليوم ودون أي مقدمات مسبقة، رغم أنها لم تقم بمثل هذه الزيارة طوال حياتها، هي على علم بأنها الصديقة الوحيدة والمقربة لوالدتها الراحلة، لكنها لم تجالسها ولو مرة تذكر حتى، لكن قربها من والدتها هو ما جعلها تخطو اليوم إلى عتبات منزلها لتسألها عما يجري.

يخرجها من تفكيرها الذي يعصف بعقلها صوت العجوز "أنطوانيت" وهي تقبل من خلفها خارجة من المطبخ، حاملة

صينية فوقها قدحين من القهوة، لتنطق مرحبة:

- أعتذر منكِ على التأخير.. ولكنكِ كما تعلمين.. القهوة تحتاج لوقتٍ ونار هادئة حتى تصل إلى ذروتها المنعشة التي تزن تفكيرك عند ارتشافها.

تلتف "كاميرون" بظهرها تجاهها لتقابلها بابتسامة شاكرة:

- لا عليكِ.. أنا من أتى دون موعد سابق.. سامحيني على تطفلي.

تسير العجوز نحو الأريكة لتضع الصينية فوق الطاولة الصغيرة المقابلة لها، ثم تجلس مجيبة بعتاب مُحبب:

- لا تتفوهي بمثل هذه الحماقات.. يمكنكِ القدوم وقتما تشاءين يا عزيزتي.

تقترب "كاميرون" لتجلس بالمقعد المقابل للعجوز مجيبة بامتنان:

- أشكركِ على حسن ضيافتكِ.

يصمتا الاثنتين لثوانٍ قليلة حتى تسترسل العجوز "أنطوانيت" متساءلة:

- هلا أخبرتني عن حال الصغيرة "إيما".. أفتقدها تلك الشقية.. هل هي بخير؟

"كاميرون" مُتصنعة الهدوء:

- نعم.. بخير.

تعاود العجوز سؤالها باهتمام:

- وكيف هي أحوال معيشتك؟

"كاميرون" بنبرة ثقيلة منهزمة:

- كل شيء على ما يرام.

تمد "كاميرون" كفها نحو قدح القهوة، تتلقفه في حين تتابعها نظرات العجوز الفاحصة، تراها هائمة، ملامح وجهها هزيلة، هيئتها توحي بثِقل ينغص عليها معيشتها، تقترب "كاميرون" من ارتشاف بضع قطرات من قدحها، حتى تباغتها العجوز بسؤالها المفاجئ:

- إذاً.. ما سر قدومكِ لزيارتي اليوم؟!

تشهق "كاميرون" بدورها حتى كادت أن تلفظ رشفات القهوة من فمها، تتمالك نفسها، تنظر مستنكرة إلى الأخيرة، تسألها:

- ما هذا السؤال الغريب.. أضايقتكِ لهذه الدرجة بقدومي؟!

العجوز تحاول تلطيف مجرى الحديث لترد بثغرٍ باسمٍ بصدق:

- أعتذر منكِ يا بُنيتي.. لقد سعدت حقاً بزيارتكِ.. فأنتِ

تعلمين أني أعيش وحيدة ولا أملك في حياتي من أتسامر معه.. لكم مزقتني الوحدة بعد رحيل والدتك.. كانت هي صديقتي وونيستي الأولى والأخيرة.

"كاميرون" متفهمة:

- أعلم هذا.. هي أيضاً لم تصادق غيركِ طوال سنواتها الأخيرة.

تكمل العجوز موضحة:

- كل ما في الأمر أنكِ لم تعتادي زيارتي.. بل لم تفعليها قط.. لذلك تعجبت من حضوركِ المحبب لقلبي اليوم.

"كاميرون" تنظر إليها هامسة:

- معكِ حق.

تسترسل العجوز متساءلة بقلق بعد أن منحتها "كاميرون" مفتاح الحديث:

- ماذا هناك يا بُنيتي؟

"كاميرون" صامتة لثوانٍ، ناظرة نحو النافذة الزجاجية تتطلع في الحديقة، ترد بنبرة حزينة:

- صدقيني لا أعلم.. لكن هناك خطبٌ ما يحدث معي ومع ابنتي "إيما" منذ رحيل والدتي.

العجوز باهتمام بالغ:

- هلا أوضحتِ ما الخطب؟

"كاميرون" تاركة النافذة لتعبث بأطراف أصابعها مجيبة:

- لا أدري كيف أصف لكِ.. كل ما يمكنني قوله أن هناك بعض الرؤى المفزعة لي.. لطالما راودتني منذ رحيل "ماريتشا".. منزلي لم يعد كالسابق.. يحبس بجوفه ثِقل غريب يطبق على صدري.. لا أطيق الجلوس به..

حتى "إيما".. أصبحت تراودها حِفنة من الكوابيس المرهقة.. جميعها تحمل "ماريتشا" داخلها.

العجوز محاولة تهدئتها:

- هذا طبيعي.. بالأخص مع ابنتكِ.. ما علمته أنها كانت متعلقة أشد التعلق بالراحلة "ماريتشا".. حتماً فقدانها جدتها أصابها ببعض الأسى والشوق لها.. هذا يفسر تلك الكوابيس التي تنغص عليها نومتها.

"كاميرون" مقاطعة الأخيرة، ناظرة نحوها باهتمام:

- وماذا عني أنا.. فأنا لم أكن متعلقة بها!

العجوز مهدئة من روع الأخيرة:

- هوني عل نفسكِ يا بُنيتي.. إنه ليس بالأمر الجلل لكي يضيق صدركِ هكذا.

"كاميرون" مجيبة بأسى:

- لقد كنتِ محقة.. لم آتِ إلى هنا اليوم لزيارتكِ من قبيل الصدفة.. ولكن كما قُلتِ سلفاً أنكِ الصديقة الوحيدة لوالدتي.. لذلك أتيت لكِ اليوم لأسألكِ سؤالاً وحيداً..

وأرجو أن تجيبيني بصدق.

تظهر علامات القلق على وجه العجوز متسائلة:

- ما هو؟!

تُلقي الأخيرة سؤالها دون تردد:

- ماذا تعرفي عن والدتي أنا لا أدركه؟

العجوز بنبرة متوتر محاولة التملص من المواجهة:

- يبدو أنكِ تضخمين الأمور يا عزيزتي.. فليس هناك من شيء خفي أطلعكِ عليه.

"كاميرون" مقاطعة:

- أرجوكِ أخبريني.. ما أراه بأم عيني ليس ترهات أتفوه بها.

تشعر العجوز أنها محاطة من شتى الجوانب بأسئلة "كاميرون" المُلِحة، تصمت لبرهة منحنية لتمسك بقدح قهوتها، ترد وهي تتأمل وجه قهوتها الداكن:

- كل ما أقدر على إخباركِ به أن والدتك لم تكن سوية طوال حياتها.. فلقد قامت بكثير من الأفعال التي يشيب لها

الرأس.

"كاميرون" تحثها على الإكمال:

- أعلم هذا.. ما عرفته مؤخراً أن والدتي كانت تقرأ بضع مجلدات غامضة لها حضور مقبض عن العالم الآخر أو شيء من هذا القبيل.

العجوز تنظر لها متأملة، تسترسل:

- ليته كان الأمر يقتصر على الاطلاع فقط.. ولكن "ماريتشا" أطاحت بأنفس كثيرة إثر تعاملها مع هذه المجلدات وفحواها الأسود.

"كاميرون" منتبهة:

- ثم؟

تمتنع العجوز عن السرد:

- هذا ما أقدر على إطلاعكِ عليه.

تجد "كاميرون" مراوغة من العجوز لتحاول التخفيف عنها:

- لا أريد أن أعلم شتى الخبايا التي بينكما.. لكن على الأقل اطلعيني على سبب ما نحن فيه الآن؟!

تعود العجوز ببصرها داخل القدح على أمل أن تستأنف الحديث:

- صدقيني.. لا أقدر على المزيد.. هناك بعض الأسرار التي تعاهدنا على عدم إفشائها أنا و"ماريتشا" حتى نرحل عن هذا العالم.

"كاميرون" بنبرة حادة:

- هذه العهود لا تعنيني في شيء.. أريد الحقيقة؟

العجوز "أنطوانيت" بنبرة حزينة:

- لقد قطعت عهداً على نفسي أني لن أبوح بأيٍ من أفعال الراحلة ما دامت تركت مثل هذه الأشياء المظلمة.

وقد فعلت.

أعوامها الأخيرة التي قضيناها سوياً ما انفكت أن تكفر عن ذنوبها وتترك هذه الأمور إلى الأبد.

هكذا أوفت هي بعهدها..

ودوري أن أفي بعهدي ما دمت حية أُرزق.

تفقد "كاميرون" الأمل في إقناع العجوز أن تبوح بما تكنه في جعبتها، تترك قدح القهوة من كفها على الطاولة، تتحرك نحو حقيبتها القابعة جوارها، تعبث بها لبرهة حتى تجذب منها لوحاً معدنياً داكن اللون، يحمل بروزاً لبضع نقوشات على سطحه، هو ذات اللوح الذي أشارت إليه صغيرتها "إيما" مع صديقتها "كلير" يوم الجنازة، عندما قبعا بغرفة والدتها الراحلة.

أيقنت من يومها أن هذا اللوح ورائه شيئ مبهم، لتنظر له العجوز محدقة في فزع فور أن رأته خارجاً من الحقيبة، تشير بسبابتها تجاهه متساءلة في رعب:

- ما الذي أتى بهذا الشيء إلى هنا؟

تجيبها "كاميرون" بخبث دون النظر إليها:

- إذاً.. بتِ تعرفيه الآن؟!

العجوز مجيبة وما زالت عيناها محدقتان فيه بفزع حقيقي:

- بالطبع أعرفه.. وأنتِ الأسلم لكِ ألا تعرفيه.. أرجوكِ أعيديه إلى حقيبتكِ!

"كاميرون" مدركة أن العجوز قد خارت قواها، لتزيد من الضغط عليها:

- ليس قبل أن تجيبيني.. ما سر هذا اللوح.. وهل هو سبب ما يحدث لنا.. أم هناك جزءاً آخر مفقود في أحجيتكما؟

بدأت الدموع تنحسر في عيني العجوز "أنطوانيت" إثر قلقها البادي على وجهها المتجعد، لقد ضيقت الأخيرة الخناق عليها، لتنطق هامسة بوهن:

- أتوسل إليكِ يا بُنيتي.. لا ترغميني على البوح بما لا

أقدر على مواجهته.

"كاميرون" مصرة على قرارها:

- لا أريد سوى الحقيقة.. أنتِ لا تعلمين ما أمر به مع ابنتي من مهازل.

العجوز مقاطعة إياها لتنطق في غضبٍ يائس:

- وما أدراكِ إذا علمتِ الحقيقة ستعيشين في نعيم؟!

"كاميرون" منهية:

- حينها أكون صاحبة قراري.. عندها قد أجلب الخراب لنفسي ولابنتي.. لكنكِ لن تكونِ المذنبة في هذا.

تمسح العجوز دموعها المنسابة بحرارة على وجنتيها بكفها، تستطرد بصوتٍ متهدج:

- "ماريتشا" عبرت حدوداً ليس لها أن تعبرها أبداً.. حدوداً محرمة.. تحدت كل شيء.. أصاب قلبها السواد.. أصبحت لا تخشى شيئاً البتة..

هذا اللوح لهو لعنة على الأرض.. يدمر كل من يملكه.. الراحلة لم تكتفي بامتلاكه ضمن حاجياتها.. بل وصل بها الشر أن استعملته.. لقد استحوذ الظلام على قلبها لسنواتٍ عدة.

حتى قررت في الأخير أن تكفر عن كل هذا.. وقد عاونا

بعضنا البعض على ذلك..

هذا جُل ما أُقدر على إخباركِ به.. وأقسم لكِ مهما حاولتي فلن أنطق ببنت شفة ثانياً.

تدرك "كاميرون" أنها لن تنال أكثر من هذا، في الأخير علمت أن هذا اللوح يملك شراً كامناً داخله، ربما لم تعرف بعد سر هذه الأمور الغامضة، لكن على الأقل أدركت بعض الأشياء التي يجب التخلص منها من حاجيات والدتها الراحلة.

تقبض "كاميرون" على اللوح بكفيها لتزج به داخل حقيبتها، تقف من جلستها هامة بالرحيل، متجة نحو الباب حتى استوقفتها العجوز منادية:

- "كاميرون".

تنظر لها الأخيرة بثِقل وأسى بادي عليها:

- نعم؟

ترمقها العجوز بنظرة آسفة، ثم تحثها برجاء أكثر منه طلب بصوتٍ مشفق:

- لا تتورطي يا بُنيتي مع هذه الأمور مثلما فعلت والدتكِ.. تخلصي من هذا اللوح في أقرب فرصة.. بل تخلصي من شتى حاجياتها التي تقبع بغرفتها.

أنتِ لا تدركي الشر الكامن داخل هذه الحاجيات!

هناك الكثير لم أجرؤ على البوح به.. في الأخير هو عهد اتخذته مع عزيزتي الراحلة.. ولن أجرؤ على النكص به.

تدرك "كاميرون" رسالة العجوز المحذرة بقلق عليها، تجيبها بوهن:

- حسناً.. سأفعل هذا.. أشكركِ أيتها العجوز.

تجيبها الأخيرة داعية بحنو:

- الرب يرعاكِ يا بُنيتي.

لتخرج "كاميرون" من باب المنزل مغلقة إياه خلفها في تؤدة، في حين تتابعها العجوز "أنطوانيت" هامسة بصوت حزين يكاد يُسمع:

- ويُعينُكِ على ما أنتِ مُقبِلة عليه.

***

10 مارس 1943

11:00 مساءً

منزل "ماريتشا ستيفن"

الظلام يسدل ستاره على كل ما يحيط بها، الطريق الوعر الذي تهرول فيه بقدميها الصغيرتين، أنفاسها اللاهثة بشدة، تيار الرياح البارد الذي يعصف بجسدها الواهن، رغم هذا البرد القارس إلا أنها تتعرق بغزارة، جبينها يُسقط قطرات العرق على الثرى الذي تخطو فوقه بقدميها في عُجالة، تتطاير خصلات شعرها في الهواء في حين تنظر كل بضع خطوات خلفها، لتجد تلك العجوز تزحف على الأرض بسرعة عجيبة سعياً إليها، لتلتف الصغيرة "إيما" إلى الأمام شاخصة ببصرها الذي لا يقابل سوى السواد الكاحل، هذه المسكينة لا ترى خلفها ولا أمامها، تمنت لو أن يظهر القمر الواهن ليضيء لها قليلاً كما اعتادت في كوابيسها، لكن هذه المرة لم يبادر بالظهور، لقد لعنت هذا القمر الرمادي مئات المرات وهو يسعى لنشر نوره الباهت من حولها في المرات السابقة، فلا تكاد ترى سوى بضع خطوات قريبة منها، ليغلف الظلام المشهد بثقله المعتاد.

الآن.. وتحت رحمة هذا الكابوس الثقيل، تلعن نفسها أن أهانت يوماً ذلك القمر ليتخلى عنها في ليلة قاحلة كهذه،

تنظر أسفل قدميها كل حين محاولة تدارك الطريق الذي تسلكه، لكنها لا ترى شيئاً البتة، حتى أقدامها لا تراها، وكأن الظلام هو ستار يحيط بها من شتى الاتجاهات، لتهرول بدورها دون أن تدري إلى أي مكان قد وصلت ولا أي سبيل سلكت، ما تدركه كل بضع خطوات هو أن هذا الطريق ليس ممهداً، تركض فوق أرض صخرية تعج بالأحجار الصغيرة والحفرات التي تعرقلها في محاولة مستميتة منها ألا تسقط في هذا السواد، بينما في كل مرة تشارف على الوقوع تنظر خلفها لتجد تلك العجوز تقترب منها أكثر فأكثر، هذه العجوز التي تشبه ملامحها الشياطين، شعرها الأشعث ناصع البياض وهو الوحيد البادي مُمَزِقاً هذه الظلمة، زيها المهترئ كاشفاً عن أطرافها المخيفة، بالية العظام كأنها منكسرة، وجهها المجعد بمظهرٍ مقبض للقلوب لا تقوى الصغيرة على احتماله، عيناها الجاحظتان بغضبٍ عاتٍ، فمها المفتوح على مصراعيه.

رغم هذا السواد إلا أن هناك ضوء خافت يظهر من اللامكان لينير جثمان هذه الشيطانة العجوز، ليكشف هيئتها أمام ناظري المسكينة التي لا تقوى بعد الآن على الركوض، وكأن كل شيء في هذا المكان صُنِع لإفزاعها..

للقضاء عليها..

طوال الفترات السابقة وهي تجاهد في نومتها حتى تخرج

من الكوابيس المفزعة التي تطاردها، دائماً ما كان الظلام هو سيد الموقف، يصحبه ذلك الكيان العجوز المتشبه في امرأة قادمة من الدرك الأسفل من الجحيم لتطاردها حتى تصل إليها، في كل مرة وفور أن تقترب العجوز من اللحاق بها ولمس أطرافها، تصرخ "إيما" بدورها في فزع لتشق حنجرتها سكون الليل المطبق، ثم تستيقظ من نومتها متعرقة، مرتجفة، تلهث في اضطراب بينما بضع ثوانٍ وتفتح والدتها مقبض باب غرفتها، لتأتي مهرولة جوارها على الفراش، دون مقدمات تأخذها في حضنها، فقد اعتادوا على الكوابيس التي تزورهم دون هوادة، فلا داعي للشرح عما جرى ليخرجها بهذه الحالة، تربت والدتها على كتفيها في طمأنينة حتى تغفو الصغيرة من جديد.

لقد اعتادت هذا الأمر الفترة الماضية، أو ربما منذ رحيل جدتها "ماريتشا" وقد لازمتها هذه الكوابيس في نومتها لتنغص عليها حياتها، حتى كادت "إيما" أن تدرك أنها في كابوسٍ ما كلما مر بها أثناء غفوتها، أو كما يقال أنه من كثرة ما رأته من هواجس وكوابيس مختلفة المعالم من أماكن غريبة، كيانات مفزعة، في حين يبقى الظلام وتلك العجوز هما أبطال كوابيسها، حتى أيقنت أنها في كل مرة تخلد فيها إلى الفراش يأتي لها هذان الزائران، وتدرك معهما أنها داخل أحد الكوابيس المرهقة، بل إنه سوف يأخذ من قلبها ما يكفي من فزع حتى ينتهي في سلام،

لتجد والدتها تحتضنها مطمأنة إياها، ولكن ما يثير حفيظتها هو علمها أنها داخل كابوس مزعج، لكن لا تقوى على الاستيقاظ منه قبل أن يسمح هو بذلك، والأدهى أنه عليها أن تشعر بالفزع في كل مرة كأنها المرة الأولى لها.

لكن متى ينتهي هذا الكابوس الطويل الذي تعيشه هذه الليلة؟!

***

على الجانب الآخر من الليلة..

وداخل غرفتها، تجلس فوق فراشها، تتدثر أسفل غطائها محتمية من لفحات الهواء المثلج، تضع فوق ركبتيها ذات اللوح المعدني، ناظرة فيه بتمعن، تتلمس باصابعها جوانبه المعدنية الناعمة، تمسك بأطرافه الأربعة الشبيهة بالتماثيل المنحوتة غريبة الشكل، تميل إلى كيانات ذات وجوه حيوانية تقبع فوق جسدٍ بشري، تضع كفها على سطحه لتتلمس تلك النقوش البارزة فوقه، بمجرد أن لامستها شعرت بضيق يجتاح صدرها، هناك ثِقَل غريب يسقط فوقها، كأن الغرفة تضيق من حولها مقللة التنفس، تحاول مجاراة ذلك الشعور المضطرب، بينما تنتفض فزعاً عندما تتحول تلك الكتل الصلبة البارزة إلى رمال سوداء ذات حبيبات خشنة، لتشهق "كاميرون" بدورها في فزع مطبق، تثبت الرمال على وضعيتها العشوائية ليعم السكون الغرفة، تظل الأخيرة لبرهة شاخصة البصر في اللوح، في حين يغمر الغرفة ظلاماً حالك تكاد لا ترى أي شيء فيه سوى ذاك الركن من الفراش القابعة فيه.

يخرج "كاميرون" من ثباتها اهتزاز المصباح بجانبها، تنظر له بقلق بادي على ملامح وجهها، يظل اهتزاز ضوئه يتزايد وهي تحدق فيه، ليختطفها من تأملاتها، تتحرك الرمال من جديد داخل اللوح، ترتسم عدة خطوط مختلفة مكونة بضع رموز غامضة كالتي ذابت منذ قليل، تدور الرمال بشكل

مخروطي مكونة فراغ في المنتصف كاشفاً عن سطح اللوح، تتابعه "كاميرون" وقد بدأت قطرات العرق تعتلي جبينها، تحدق بعينيها التي كادتا أن تخرجا من محجريهما عندما وجدت تلك العين البيضاء التي تخرج من ذلك الفراغ التي كونته الرمال، تتوقف بعدها عن الحركة معلنة عن حدقتها السوداء في المنتصف ناظرة إلى السقف، تهدأ الأمور بعدها وما زالت "كاميرون" لا تصدق ما رأته، يكاد عقلها يُجَن، قلبها يتواثب حتى أمسى قاب قوسين أو أدنى من أن يقف عن النبض.

لحظات مرت ثقيلة عليها وهي تحاول أن تستجمع قواها التي خارت، حتى اكتمل فزعها بتحرك الحدقة السوداء تجاهها فجأة، لتشهق برعبٍ يمزقها، تحاول أن تحرك اللوح بعيداً عنها لكنه يحمل ثِقَلاً غريبا، يرفض الانصياع لها، تقبض بكفيها على جوانبه ممسكة بتلك الكائنات المعدنية على جوانبه، تزيحه عنها بكل ما أوتيت من قوة، لكن باءت محاولاتها بالفشل، ليكتمل بؤسها بانطفاء المصباح نهائياً ويعم الظلام الغرفة.

ينشر الصمت نفسه من حولها، لا تسمع سوى صوت أنفاسها اللاهثة، الظلام أصبح حالكاً حتى أنها تشعر وكأنها مغمضة جفونها، لا زالت تحاول إزاحة ذلك اللوح الذي ثبت على رقدته كأنه حجر صخري، ليصل إلى أذنيها صوت مقبض الباب يدور، ينفرج باب غرفتها في هدوء ليتسلل

الضوء من خلفه، كاشفاً عنها.

إنها.. إنها والدتها!!

"ماريتشا"..

تقف أمامها في ثبات، تستند بكفها على مقبض الباب، الضوء الخافت من الردهة يظهر ملامحها المفزعة، تجاعيد وجهها، شعرها الأشعث، ملابسها الممزقة كاشفة عن أطرافها الرفيعة غريبة الشكل، تتابعها "كاميرون" في صمت وبلاهة، لا تدري ماذا عليها أن تفعل، بينما تنظر العجوز ناحيتها بعينين غاضبتين، تباغتها لتسير بخطى سريعة ناحيتها حتى كادت ألا تراها كيف وصلت جوارها هكذا، تدير "كاميرون" وجهها تاركة فوهة الباب الفارغة متجهة إلى جانبها، تنظر لها برعبٍ بالغ وعينيها تدمعا بحرارة، لتبتسم لها "ماريتشا" كاشفة عن فمٍ مظلم، ثم تقبض بأصابعها الجافة العظمية على رقبتها خانقة بقوة، تلهث "كاميرون" قابضة على كفي العجوز محاولة التخلص منهما..

تصرخ العجوز "ماريتشا" بصوتٍ قادمٍ من بئر سحيق:

- لقد عبثتِ بأشيائي.

في حين تصرخ "كاميرون" بصوتٍ واهن:

- لاااااااااااا.

***

تعثرت المسكينة "إيما" لتقابل الأرض الصخرية بوجهها، تصطدم بقوة لتتأوه بألمٍ قاسٍ، تنظر خلفها فتجد تلك العجوز تزحف على بُعد عدة أمتار قليلة منها، تحاول الصغيرة النهوض من رقدتها ولكن تشعر بألم سحيق في ركبتها التي ارتطمت بقوة فوق حجرٍ صخري مسنون، تلمس بكفها ركبتها في موضع الألم دون المقدرة على رؤيته، لتصرخ بحنجرة مذبوحة:

- اااااااااااه.

تبكي بحرقة بالغة، هناك سيل من ركبتها لا تراه يلمس كفها، لا حاجة لضوء حتى تعي أنه دماً من الجرح الغائر الذي أصيبت به، تلتفت بوجهها للخلف بألم، معدلة من رقدتها باحثة عن مدى اقتراب هذا الكيان، فتجدها أمامها مباشرةً، تحدق "إيما" فيها بفزع يكاد يمزق طيات قلبها، تلك العجوز التي تطاردها منذ فترة طويلة في كوابيسها المتكررة لم تكن بهذا القرب من قبل، ذلك ما جعلها لا تقدر على التمعن في ملامحها سوى أنها قبيحة لدرجة تقبض القلوب، هذه المرة الوجهان يلتقيان بحميمية، تحدق الصغير "إيما" في تفاصيلها، شعيراتها البيضاء المشعثة، تجاعيد وجهها التي تكاد أن تخفي ملامحها الأساسية، عينيها المحدقتين بغضب، هذه الملامح ليست غريبة عنها، إنها تتذكرها جيداً.

إنها جدتها الراحلة!

طوال هذه الأعوام وهي تطاردها في أبشع كوابيسها ولا تدري كنهها، رغم هيئتها المرعبة التي ترتجف منها الصغيرة إلا أنها تعرفت عليها، لا زالت جدتها الراحلة، تحمل نفس قسمات وجهها التي اعتادت عليها، لتنطق "إيما" مرتجفة في همس:

- جدتي.. إنها أنتِ؟!

تبتسم الأخيرة بفمٍ مظلم كفوهة القبر، مما زاد من هلع الصغيرة، لتصرخ في وجهها بقوة تصم الآذان:

- أشيااااااااااائي.

تنتفض "إيما" من رقدتهان متعرقة الجبين، بل الجسد بأكلمه يتصبب عرقاً، كأنها كانت تجلس داخل فوهة بركان، تنظر حولها في فراغ الغرفة المظلمة، تقبع فوق فراشها منتظرة حضور والدتها كما اعتادت أن تاتي كل ليلة عند سماع صراخها إثر الكوابيس التي لا تنتهي، لكن هذه المرة تتابع "إيما" باب غرفتها الموصد ولا تجدها قادمة، لا زالت تلهث محاولة جمع شتاتها، لقد كان الكابوس هذه المرة أثقل بكثير من المعتاد، تتحرك هابطة من أعلى الفراش متجهة بخطوات متأرجحة ناحية الباب، تفتحه لتسير في الردهة المضيئة تجاه غرفة والدتها، تقف أمام الباب تميل بأذنها عليه مختلسة السمع، تخشى أن تصدر

ضجيجاً يوقظ والدتها، هي توقن أنه طالما لم تأتيها راكضة لتحتضنها كما تفعل كل ليلة، فحتماً لم تسمع صراخها المفزع لأنها تغط في ثباتٍ عميق.

تظل واقفة لبرهة لتجد الصمت المطبق هو المجيب، تمد كفها لتفتح مقبض الباب في تؤدة، ينفرج بهدوء كاشفاً خلفه ظلام حالك، في حين ينبثق ضوء الردهة إلى الداخل واهناً ليوضح ما يجعل "إيما" ترتجف فزعاً، والدتها القابعة فوق الفراش، قابضة بقوة على ذاك اللوح المعدني الخاص بجدتها، تتذكره الصغيرة، رأته منه منذ سنوات، تجد والدتها تنظر تجاهها فاغرة فاهها دون نطق، على ملامحها نظرة مفزوعة لن تنساها الصغيرة طوال حياتها، لم تتمالك "إيما" نفسها خيفة على والدتها وما جرى لها وحدها، لتهرول مسرعة بخطوات طفولية ناحية الفراش، حتى أصبحت أمام وجه "كاميرون" تلهث باضطراب..

تنطق أولى كلماتها:

- ماذا بكِ يا أمي؟

تتابعها "كاميرون" شاخصة البصر، تتلاحق أنفاسها المسرعة بشدة وكأنها تصاب بالاختناق، ترفع "إيما" كفيها ناحية رقبة والدتها محاولة فك أزرار سترتها ليتخلل صدرها بعض الهواء، ولكن على حين غُرة، تفاجئها الأخيرة بإمساك كفيها الصغيرين لتقبض بهما عنوة على رقبتها وهي تنظر

لها برعبٍ عتي، تفزع "إيما" لما يحدث من والدتها في محاولة لخنق نفسها، تحاول إزاحة كفيها في صعوبة بالغة تحت سطوة قبضة والدتها المتحجرة.

لتنطق وهي تدمع متوسلة:

- أتركيني.. أتركيني.. أرجوكِ.

تجيبها الأخيرة صارخة بصوتٍ هادر يمزق ثنايا الليل:

- لاااااااااااااااااا.

ليهبط كفيها الصلبين في هدوء، مرتخية الأعصاب، تميل بظهرها إلى الخلف شاخصة البصر، وكأن صرختها الأخيرة هي ما تبقت لها في روحها، لتسكن دون نفس آخر.

***

20 فبراير 1960

2:00 صباحاً

منزل "ماريتشا ستيفن"

الغرفة تعج بالمجلدات المبعثرة في كل ركن، بعضها يحمل أغلفة جلدية داكنة اللون ثقيلة، لها ملمس خشن يشبه الكتب التراثية من قديم الأزل، والبعض الآخر هو وليد هذا العصر من الأوراق البيضاء الناعمة والأغلفة الرقيقة التي تحمل على طياتها أسماء مؤلفيها، الشموع تتناثر على أطراف الطاولة وبعض الجوانب من الغرفة، مما يجعلها تفوح برائحة مزكمة للأنوف إثر الزيوت المصبوغة بها، هذا النوع من الشموع العريضة ذات اللون الأصفر الداكن هو ما تهواه لتأثيره الغريب على نفسها، تشعر معه بحضورٍ مهيب لكيانها، مثل تلك الإضاءة الخافتة التي تبعثها الشموع تجعل الغرفة باهتة، ضبابية، تماماً كالغابات التي يغطيها أوراق الأشجار من أعلى فينساب ضوء النهار ضعيفاً داخل جوفها، فتشعر معه بالانقباض، لتكتفي "إيما" بهذه الشموع عن المصابيح الكهربية التي تنير باقي أرجاء المنزل، لطالما فضلت هذا الضوء الواهن من الشموع على أنوار الغرفة الكاملة.

تجلس على مقعدها خلف الطاولة المقابلة للحائط، لا

زالت تحتفظ بها منذ طفولتها، فقد اعتادت أن تستذكر دروسها عليها مع والدتها الراحلة، بل إنها فضلت أن تبقي كل أثاث المنزل كما هو كما فعلت والدتها مع أثاث جدتها الراحلة، ناهيك عن غرفتها التي مر عليها أعواماً كثيرة بنفس الأثاث والترتيب منذ أن كانت "إيما" طفلة، والآن قد شارفت على ربيعها الرابع والعشرين، فهي تشعر داخل هذه الغرفة أنها في مأمن عن العالم وما يحتويه مما يقلقها على الدوام.

مائلة برأسها إلى الأمام منحنية تطالع إحدى الصفحات داخل مجلد ضخم به المئات من الصفحات في تركيزٍ بالغ، تمعن النظر فيه بدقة، تضع على يسارها معجماً لترجمة اللغة اللاتينية القديمة، في حين على يمينها ترقد مذكرة فارغة الصفحات وبجانبها قلماً ريشياً ومحبرة صغيرة، لتغمر القلم كل حين داخل المحبرة ثم تسرد به بضع كلمات فوق المذكرة، تترجم الكلمات الغريبة، تدون بعض الجمل التي تنتقيها من بين السطور في المجلد إلى مذكرتها لاستخدامها فيما بعد.

أصبحت خبيرة في هذه المجلدات حاملة اللغات القديمة، اعتادت مطالعتها منذ أن كانت بالمرحلة الثانوية عندما أتمت ربيعها السادس عشر، بدأت البحث في بعض الكتيبات البسيطة ثم تداعت الأمور لتجذبها داخل هذا الكم من المجلدات القابعة بغرفتها الآن، منذ أن فقدت والدتها

وهي صغيرة منذ سنواتٍ طويلة وما تزال هذه الحادثة مؤثرة عليها بشكلٍ سلبي، ومن قبلها فقدان جدتها العزيزة، وقتها أحست أنها لا تطيق التفاعل مع البشر، شعرت وكأنه كلما أحبت شخصاً يدلف إلى حياتها سيلقى حتفه المجهول مثلما حدث مع الاثنتين المقربتين لقلبها، منذ ذلك الحين وقد تعاهدت أن تعيش وحيدة، لا أحد يعلم عنها شيء، لا تخاطب جيرانها، لا تفتعل الشجارات بالمدرسة، لا تعسى نحو تكوين الصداقات بالجامعة، بل إنها لم تسمح لقلبها بأن يخطو تجربة الحب، لطالما طرق الحب قلوب مثيلاتها في مرحلةٍ ما من عمرهن، إلا أنها رفضت هذا دون رجعة، يقيناً منها بأن الوحيد الذي يجدر الثقة به ولن يرحل أبداً هو الكتاب، هذه المجلدات التي ورثت بعضها عن جدتها التي عاشت سنيناً طويلة في القبو بعد أن رفضت والدتها الراحلة أن تمنحها إياها، لتأتي لها الفرصة على صحنٍ من ذهب عندما فقدت والدتها بتلك الطريقة المفجعة.

منذ وقتها وهي تدرك أن هذه المجلدات تحمل بين طياتها أسراراً كثيرة، غامضة، مريبة، تكاد تفتك بحياة من يعبث معها دون علم كافٍ بها، لهذا اعتادت أن تقضي وقت فراغها كل يوم في مطالعة هذه الكتيبات ودراسة فحواها، لتستعين بهذا المعجم الذي يعينها على إدراك المعاني المبهمة، هكذا لن تخاطر بمعنى تقرأه، كل سطرٍ مدون هنا هي تتأكد من ترجمته الصريحة والمقصودة، والأهم ما

الغرض منه.

في الحقيقة.. هي لم تدرس هذه المجلدات بدافع الفضول أو من أجل تسلية فراغها فقط، ولكنها تملك إحساساً دفيناً منذ أعوامٍ مرت أن رحيل جدتها، الكوابيس التي طاردتها لليالٍ طوال، ثم فاجعة موت والدتها، كل تلك الأمور الغامضة التي أرقت تفكيرها ستجد سرها داخل سطور هذه المجلدات العتيقة، لقد عانت قليلاً في دراستها الثانوية، فقد أصيب جميع من حولها بالرهبة من تصرفاتها، طريقة حديثها الهادئ والمقتضب، الكتيبات التي تقرأها، هذه الأمور جعلتهم لا يشعروا بالراحة في التعامل معها، بل إنهم في بعض الأحيان وصموها بالساحرة، لتسخر من تلك الخاطرة التي طرأت على عقلها مبتسمة بطرف شفتيها في صمت، فرغم محاولاتها في توضيح بعض هذه الأمور لزملائها، إلا أنها شعرت ببعض الراحة في قرارة نفسها..

فهذا ما رغبت فيه منذ البداية.. العُزلة.

تعود من شرودها في تلك الأفكار التي طرأت على عقلها إلى ذاك المجلد، تتأمله من جديد في تركيز لكنها تفقده سريعاً، لتتوقف عن مطالعة تلك الرموز المعقدة في إحدى الصفحات أمام ناظريها، تشعر بالهذيان قليلاً، صداع يعصف بعقلها، تنظر إلى ساعة يدها فتجدها تعدت الثانية والعشرون دقيقة بعد منتصف الليل، تميل برأسها للخلف ناظرة لأعلى بجفون مثقلة، تتعجب من كم الساعات التي

قضتها وهي تطالع هذا المجلد دون هوادة، تتذكر عودتها في النهار من الجامعة وكانت الساعة على مشارف الرابعة، لتدلف إلى المنزل متجهة إلى غرفتها لتغلقها خلفها، رغم أنها تعيش وحدها بالمنزل لكن هكذا اعتادت، هكذا تشعر بالخصوصية، تجلس على مقعدها بعد أن ألقت بحقيبتها في إهمال على الفراش، تفترش الطاولة بهذا المجلد ومذكراتها ومعجمها الذي يرافقها دوماً، لم تقم من جلستها سوى مرة واحدة منذ ساعات لتضئ الشموع بالغرفة بعد أن لاحظت غياب الشمس ليسدل الليل ستاره في الغرفة، لم تأكل، لم ترتح ولو لبرهة، تنظر إلى حالها لتجد نفسها ترتدي زيها الذي خرجت به للدراسة في الصباح، بل إنها لا زالت ترتدي حذائها الرياضي طوال هذه الساعات، لتقوم من جلستها تنزع حذائها عن قدميها اللتين يألمانها من أثر الجلوس لتشعر بتنميل قاتل فيهما، تخلع عنها ثيابها لتهم خارج غرفتها متجهة ناحية المرحاض لتأخذ حماماً ساخناً يزيل عن كاهلها إرهاق هذا اليوم.

ظلت أسفل الماء الدافئ الذي يهطل على ثنايا جسدها قرابة النصف ساعة، ساكنة، تستمتع بهذا الشعور المحبب لقلبها، حتى انتهت.

تضع المنشفة حول جزعها مترجلة بخطواتٍ رشيقة إلى غرفتها، تحمل جسد أمها المتناسق مائلاً للقصر، عيناها واسعتان، شعرها الناعم المنساب الذي ورثته عن جدتها

الراحلة، تقف أمام دولابها مخرجة بعض ثياب النوم، تتحرك خطوتين لتجلس على حافة الفراش بعد أن استعادت توازنها قليلاً إثر الحمام الساخن، تجفف شعرها بالمنشفة مائلة برقبتها تجاه اليمين لتقابل عينيها ذاك المظروف القابع جوارها، تهمل تجفيف شعرها لتلقي بالمنشفة بإهمال على الفراش، تمسك المظروف الأبيض ذو الملمس الخشن الذي أجبر جسدها على القشعريرة، تقلبه في يديها تبحث عن اسماً أو علامة بريدية توضح كنهه لكنه فارغ تماماً، شعور مقبض يجتاحها بمجرد أن أمسكت بهذا المظروف، هي لم تأتي به ولا تدري كيف وصل إلى هنا، هي تعيش بمفردها منذ سنوات ولا يحضر أحد لزيارتها، وهذا ما زاد الأمر سوءاً.

فكرت في إلقائه خارج نافذة غرفتها لكن هاجس ما يحثها على فتحه والنظر فيما يحويه، وكأن حثيثاً ما يأمرها بذلك في أذنها، لتفتحه مخرجة تلك الورقة المطوية داخله، تحمل نفس الملمس الخشن المقبض لنفسها، تفردها لتجد سطرين فقط لا غير فيها:

"إيما واطسن.. يوم 10 مارس.. الساعة 11:00 مساءً.. المشفى العقلي.. يجدر بكِ ألا تتأخري".

تفزع فور أن قرأت هذه الكلمات، تضع الورقة مع المظروف جانبها على الفراش وهي ترتجف بخوف، شعور مقبض يجتاحها، تشعر أنها مقبلة على ما لا تقدر على

تحمله، ذلك الغموض في وصول هذا المظروف حتى فراشها، داخل غرفتها، داخل منزلها، الكلمات المقتضبة بداخله أعادت لها شعوراً بالقلق والرعب كادت أن تنساه منذ أعوامٍ مضت، إنه ذات الشعور الذي جاورها قديماً عندما كانت تؤرق الكوابيس نومتها، والتي تخشى ذكرها الآن، فقد لازمتها حتى مصرع والدتها.

ومنذ ذلك الحين لم تزورها تلك الكوابيس مجدداً.

فلماذا يثقل هذا المظروف كاهلها الآن؟

وما سره؟

***

10 مارس 1940

11:00 مساءً

المشفى العقلي

السماء مظلمة تتناثر النجوم عليها كاللآلئ، البرد قارس بالخارج يهز أشجار الحديقة عابثاً بها كالغصون الواهنة، قطرات الندى التي تنساب منذ بداية النهار أعلنت عن ظهورها بقوة منذ سويعات قليلة لتكون بركة من المياه على جانبي الطريق، البرق يشق السماء بضوئه مصحوباً بهزيم الرعد الهادر، هذه الليلة صعبة على من تسول له نفسه بالخروج من عتبات داره، يتابع "مايكل" هذه السيمفونية المضطربة من خلال نافذة مكتبه الزجاجية، يجلس على مقعده الدوار موجهاً ظهره للغرفة، مائلاً للخلف في وضع مريح لجلسته، تتخلل أصابع كفه سيجارة شارفت على الفناء منتظرة منه أن يسحب أنفاسها الأخيرة ليرحمها ثم يلقي بها في المطفأة إلى جانب أخواتها السابقين، الغرفة تعج بالدخان الثقيل جاعلة الرؤية داخلها كالضباب، المصباح الواهن أعلى طاولة المكتب يسعى جاهداً للإنارة في محيطه الصغير وسط هذه الرؤية الرمادية.

ينتظر "مايكل" حدثاً هاماً هذه الليلة، لقد ظل يخطط بدوره مع الممرضتين منذ أسابيع انقضت عما سيجري بعد

قليل، تباحثا وقاما باختيار ضحية لعبتهم الليلة، لطالما كان يحب "مايكل" رؤية المشعوذين والذين يدعون التخاطر مع الموتى، مثل هذه الأمور كانت تثير هلعه في الصِغَر بينما تشوقه الآن، ولقد توافقت الظروف المناخية الليلة مع مبتغاهم بهطول هذا السيل من الأمطار معرقلة الحركة بالطرقات، وكأنها تمنحهم إذناً بالموافقة للاستكمال.

منذ الصباح وهو متحمس، ينتظر طوال هذه الساعات حتى يحل الليل وتذهب الممرضة "كرستين" لإحضار تلك المشعوذة لبدء سهرتهم الممتعة.

لا يكاد يصبر شوقاً على حضور هذه العجوز ورؤية ما ستقوم به من عرض خاص يؤنس ليلته المملة تلك، لتقاطعه نقرات هادئة على باب غرفته ثم تدلف الممرضة "ماكفي" مرتدية زيها الأبيض وقلنسوتها التي تغطي فوق رأسها كاشفة عن شعرها المجعد من الأجناب، تسير بجذعٍ منفرد كما المنحوتات الصخرية داخل المكتب بخطوات حتى وقفت على مقربة منه، تبتسم له ناطقة:

- لقد عادت "كرستين".

يلتف "مايكل" بمقعده الدوار تجاهها، ينظر لها متسائلاً بلهفة:

- والعجوز؟

تغمز له بطرف عينها مجيبة:

- جالسة معها.

يحرك كفه ملقياً بالسيجارة أو ما تبقى منها داخل المطفأة، يعتدل في وقفته ساحباً سترته من خلف المقعد ويرتديها في عجالة، يتحركا الاثنين خارج الغرفة لتغلق "ماكفي" الباب من خلفهما، يقف "مايكل" في الردهة موجهاً سؤاله لها:

- أين هما؟

تتحرك "ماكفي" خطوتين أمامه مجيبة بهمس:

- لقد جعلت "كرستين" تصعد بها إلى الدور الأخير في غرفة الأرشيف المهجورة، هناك سنكون بمنأى عن المشفى ولن يشعر بنا أحد.

يسير "مايكل" من خلفها موضحاً إعجابه:

- كم أحب رجاحة عقلكِ يا "ماكفي".. لهذا كنتِ شريكة في سهرتنا المثيرة.

يسيرا الاثنين بجانب بعضهما البعض، "ماكفي" بجزعها القائم وخطوتها الطويلة المعتادة، بينما "مايكل" في بذلته الراقية وهيئته التي توحي بالوقار ممتزجة مع طوله الفارع، يصعدا الدرج متتالياً حتى وصلا للدور الأخير، يتحركا بخفة في خطواتهما حتى لا يشعر أحد النزلاء بقلق، وصلا إلى باب الغرفة ليمد "مايكل" كفه تجاه مقبض الباب يديره

لينفرج بهدوء معلناً عن غرفة مظلمة واسعة بها طاولة في المنتصف تحوطها خمس مقاعد، الغرفة تعج بالأتربة والملفات المهترئة في الأركان محمولة فوق أرفف معدنية صدئة مهجورة منذ سنوات، يلقي بنظره ناحيتهما وهو يدلف إلى الداخل لتتابعه "ماكفي" من خلفه، تجلس "كرستين" فوق أحد المقاعد لتقف فور دخوله من الباب، جوارها تجلس العرافة دون اكتراث لمن هو قادم تجاهها، عجوز شمطاء ترتدي زياً أسود فاحم يغطيها، يعتليه وشاحاً زهرياً، شارفت على إنهاء عقدها السادس، تملأ التجاعيد وجهها تكاد تخفي معالمها، عيناها غائرتان، عروق كفيها تظهر جلية، لها حضور غريب ثقيل على النفس، تنظر لأسفل شاردة في ثبات.

يوجه "مايكل" سؤاله الهامس إلى "كرستين" وهو يتابع العجوز بنظراته:

- إذاً.. هذه هي التي حدثتني عنها؟

"كرستين" متحمسة:

- أجل يا دكتور "مايكل".. إنها العرافة المنشودة.. تُدعى "ماريتشا ستيفن"، لي سابق معرفة بابنتها وعائلتها لكن ليس بيننا أُلفة.. ما سمعته عنها أحاديث تقشعر لها الأبدان.

يستطرق "مايكل" ناظراً تجاه "كرستين" بخبثٍ مصطنع:

- سوف نرى.

ترفع العجوز "ماريتشا" رأسها لأعلى محدقة فيه بنظرة غائرة هزت أوصاله، متحدثة بنبرة هادئة أربكته:

- ما لم تكن جاهزاً لما أنت مُقبل عليه يا هذا.. فمن الحكمة أن تتراجع الآن قبل فوات الأوان.

تبرز قطرات العرق على جبين "مايكل" محاولاً الثبات، يجيبها بنبرة مهتزة:

- حسناً.. أيتها العرافة.

رغم أن جملتها كانت موجهة إلى "مايكل" بشخصه إلا أنها أثارت الريبة في قلب الممرضتين، ليلقي الأخير بنظره تجاه "ماكفي" الواقفة بجانبه آمراً:

- يمكنكِ أن تحضري النزيلة "سيرا" من الدور السفلي.

لتهم بدورها متمتمة:

- حالاً يا دكتور.

تخرج مغلقة الباب من خلفها تاركة ثلاثتهم في صمتهم المطبق، يتحرك "مايكل" قرب الطاولة ليجلس بجانب "ماريتشا"، بينما تجلس "كرستين" في الناحية الأخرى منها، ينتظر الأخير في صمته متأملاً اختياره لتلك النزيلة "سيرا تشايس" فهي الأجدر والأحق بهذه التجربة، ليس لها من أهل يسألون عن حالها، قادمة من طرقات الشوارع،

عجوز لا تدري...

تقاطعه "ماريتشا" دون النظر إليه:

- لأنها خرفة..!

يتعجب "مايكل" ناظراً تجاهها بتساؤل:

- اعذريني.. ماذا قُلتِ؟

تنظر له بثقة ناطقة:

- العجوز "سيرا".. لأنها خرفة..!

ينصعق "مايكل" من ردها المباغت له، يوجه بصره المذهول ناحية "كرستين" كناية عن سؤالها ما إذا أخبرتها هي، لتتابعه "كرستين" مرتعشة متمتمة برأسها أنها لم تتفوه بكلمة معها.

يبتلع ريقه بصعوبة مع حلقه الذي جف من هذه المفاجئة، يحاول الاتزان أمامها ناطقاً في محاولة لتغيير مجرى الحديث:

- أعتذر منكِ على القدوم في هذه الليلة.. حتماً واجهتِ صعوبة بالغة في الطريق.

تسترسل "ماريتشا" ناظرة لأسفل ناحية كفيها مداعبة أطراف أصابعها:

- هذا هو الوقت الأنسب لك.

ينظر "مايكل" تجاهها مستنكراً:

- ماذا تعني؟

ترفع "ماريتشا" رأسها لأعلى ناظرة إليه بثباتها وجديتها الواثقة، تهمس بالقرب من أذنه:

- لا أحد بالمشفى غير ثلاثتكم.. الجميع رحل إثر هذا الطقس الذي شارك معكما اللعبة هذه الليلة.. لولا هذه الأحجية الصعبة ما قَدِمت.. بل ما استدعيتني من الأساس.

يحدق فيها بصمت وهي تشرح، يسألها بتوتر جلي في نبرته:

- أنى لكِ بكل هذا؟!

تبتسم له بطرف شفتيها دون رد لتعود بعدها إلى صمتها المطبق تداعب أطراف أصابعها، بينما ينظر لها "مايكل" غير مستوعب ما قالته للتو، يشعر أنه عارٍ تماماً أمامها، لا مجال لاختلاق الأعذار، لا داعي لافتعال الأكاذيب وهي ترى جوفه جلياً أمام ناظريها، يقطعه من تفكيره انفراج باب الغرفة لتدخل من خلفه "ماكفي" ممسكة بكف العجوز "سيرا"، تلك التي شارفت على إنهاء عامها الرابع والثمانين، قصيرة القامة، حانية الظهر، شعرها خفيف مسترسل غزاه الشيب منذ زمن، لم يبق لها الكثير من أسنانها مما يجعلها دائمة إطباق فمها، تسير بخُطى متثاقلة

بضع خطوات حتى أقعدتها "ماكفي" على المقعد المقابل ل"ماريتشا"، ثم تجلس جوارها الأخيرة في صمت، يعدلوا من جلساتهم ليحكموا إغلاق أضلاع الطاولة الأربعة.

يعم الصمت المكان، الظلام يغلف الغرفة لا يتخلله سوى ضوء باهت قادم من القمر متسلل من النوافذ الزجاجية، يعاونهم على تطلع ملامح بعضهم البعض بصعوبة، تمد "ماريتشا" كفيها بجوارها داخل تلك الحقيبة الجلدية العتيقة داكنة اللون، تخرج لوحاً معدنياً مربع الشكل يحمل نقوشاً منحوتة على سطحه الخشن، يكتسب لوناً فضياً لامعاً تحيطه أربعة أجسام بارزة من الأطراف، تلك التماثيل صاحبة الجسد البشري والرؤوس الغريبة شبيهة بالحيوانات، لتضعه "ماريتشا" أعلى منتصف الطاولة ثم تهم بالانحناء مجدداً عابثة بكفيها داخل الحقيبة لتخرج كيساً قماشياً ذو رباط موثق أعلى فوهته، تقرب الكيس فوق اللوح ثم تفك الرباط مسقطة ما بداخله من رمال سوداء خشنة، تبعثرها بطريقة عشوائية محدقة بتركيز فيما تفعله بينما تحدث الحضور من حولها بصوتٍ هامس عميق:

- اقبضوا بكفوفكم على هذه التماثيل.. لا تتركوها مهما حدث إلا عندما آمركم بذلك.

ينظر كل منهم إلى الآخر في صمتٍ قلق ثم ينصاعا لأوامرها ممسكين بكفوفهم تلك المنحوتات الغامضة، تقوم "ماكفي" بإمساك كف العجوز "سيرا" ووضعها حول التمثال

المواجه لها ثم تخرج رباطاً قماشياً طبي من جيب سترتها لتقيد به كف الأخيرة بإحكام حتى لا تنفلت.

يتابعها كل من "مايكل" و"كرستين" باستغرابٍ عما تفعله، بينما "ماريتشا" تكمل تجهيز اللوح دون اكتراث لما يحدث حولها، لتنظر "ماكفي" تجاههم شارحة:

- لقد قالت العرافة ألا نترك اللوح إلا بأمرها.. هذه العجوز الخرفة لن تنصاع لهذا الحديث.. نحن لا نريد إفساد ما سعينا لأجله هذه الليلة.

يؤيدانها الآخرين برأسهم في تفهم واندهاش لدهائها حتى انتهت من تقييد العجوز، لتبادرهم "ماريتشا" بالحديث:

- والآن.. ليس عليكم الإقدام على فعل شيء متهور.. ما نحن مقبلين عليه ليس بمزحة.. من يريد التراجع فهذه فرصته الأخيرة.. وربما يندم إن لم يغتنمها.

صمتهم المطبق يحثها على الإكمال، تنظر لهم جميعا بهدوء ثم تعود ببصرها إلى اللوح شارحة:

- تتم الآن جلسة تحضير لمخاطبة ساكني العالم الآخر.. الجسد المضيف هو تلك العجوز.. سأبدأ بإلقاء تمامتي ليحضر الضيف ناطقاً على لسانها..

يقاطعها "مايكل" مستفهماً:

- وكيف لنا أن نعرف من هو الضيف المتحدث؟

تنظر "ماريتشا" تجاهه بخبث ناطقة بهمسٍ يريبه:

- ستعرف عندما تتحدث.. لك!

يصمت الجميع لتبدأ سهرتهم الحقيقية، تغمض "ماريتشا" عينيها لتابعها الحضور مقلدين، تقترب بدورها من اللوح متمتمة ببضع كلمات مبهمة لا يدركوها، تمر عليها برهة وهي تسترسل حديثها الغامض بنبرة ثقيلة تثير القلق بجوفهم.. حتى انتهت.

ينتظرون لثوانٍ ثم يفتحون أعينهم على صوت حركة الرمال الخشنة داخل اللوح، يحدقوا فيها وهي تدور حول نفسها بطريقة مرتبة صانعة شكلاً مخروطياً مفرغة منتصفها، تكشف عن سطح اللوح الفضي الذي تتكون فوقه عين بيضاء ذات حدقة مظلمة محدقة في الأفق، تبرز لأعلى وسط دوران الرمال من حولها وشهقة عالية خرجت من حنجرة "كرستين" لتحدق فيها "ماريتشا" محذرة، يزداد الجميع في قبضته على التمثال القابع قُبالته بكفه، تسكن الرمال عندما تتحرك الحدقة بطريقة مفاجئة تجاه العجوز "سيرا" التي بدورها تحني رأسها لأسفل ناظرة دون حراك.

يتابعونها بنظراتهم المتوجسة لثوانٍ، لا شيء يكسر الصمت من حولهم سوى صوت أنفاسهم المضطربة تمتزج بهزيم الرعد بالخارج.

حتى نطقت.!

تنظر "سيرا" لأسفل.. تضحك بنبرة ثقيلة هامسة بحنجرة لم تكن لها.. صوتاً ذكورياً خشن:

- أنتم لا تعلمون ما تعبثون به الآن.. لكن لا داعي للندم.. لا مناص للتراجع.. سنكمل ما بدأناه..

ما رأيك يا.. "مايكل"..؟!

ينصعق الأخير متسائلاً ببلاهة:

- ماذا.. أنا؟!

تجيبه العجوز مسبلة رأسها لأسفل بذات الصوت الجهوري:

- لا أعرف غيرك.. أنت من رأيته للمرة الأخيرة.. من أسبلت جفوني محدقاً في وجهك.. أنت من قتلتني.. ألا تتذكر؟

ربما "كرستين" تعينك على التذكر..!

تفقد الأخيرة رباطة جأشها ناطقة:

- هاااااا؟

يسترسل الصوت الجهوري:

- لقد عاونتِه على فعلته.. لم ترحمي آلامي.. عذابي.. منذ أعوامٍ مضت وأنتما تخفيا جرمكما..

ظناً أنكما ستفلتا بإثمكما..

"ويلسون جرين".. هل بات صوتي واضحاً الآن؟!

ينطق "مايكل" مفزوعاً:

- لم نقصد هذا يا "ويلسون".. نحن آسفين.. سامحنا أرجوك.

تقطع توسلاته "ماكفي" بنبرة محتدة:

- ما هذا الهراء.. كيف لنا أن نوقن حقيقة هذه اللعبة؟

يصمت الجميع من حولها لبرهة، تضحك العجوز "سيرا" بنبرة نسائية ناعمة ليست شبيهة بحنجرتها المتحشرجة:

- هاهاها.. ماذا تريدين يا "ماكفي".. حتى وإن كانت خدعة.. ماذا أنتِ بفاعلة.. هل ستكتمين أنفاسي بالوسادة؟

تشخص "ماكفي" ببصرها متذكرة دون رد، في حين تكمل الأخيرة:

- مثلكِ مثلهم.. جميعكم قتلى.. ظننتِ أنكِ نجوتِ بفعلتكِ أيتها العاهرة.. العجوز الهزيلة.. التي لم تقدر على مواجهتك يوماً.. "كادي نوا".. ها أنا أمامكِ الآن..

ولن أبرح حتى أخذ بثأري منكِ!

يصمت الجميع مندهشاً، مصعوقين مما يروه، يحدق "مايكل" في "ماكفي" بغضب من فعلتها التي لم يدركها لسنوات، لتكمل العجوز "سيرا":

- لقد رغبتهم في اللهو.. وها قد أتاكم.

في اللحظة التالية.. ترفع "سيرا" رأسها لأعلى شاخصة البصر في الأفق بعينين بيضاوين خاليين من حدقتيها، فاغرة فاهها تصرخ بصوتٍ تهتز له القلوب رجفتاً:

- آآآآآآآآآآآه.

شعرها المسترسل أمسى أشعثاً تتجاذبه الريح، تنفرج النوافذ عنوة بقوة لتصرخ معها "ماكفي" برعبٍ يمزقها، لتنطق صارخة:

- هذا يكفي..!

ثم تفلت قبضتها التمثال، لتصرخ فيها "ماريتشا" برعب:

- لا تفعلي.. ستهلكينا.

فور أن أفلتت "ماكفي" كفها لتهتز الرمال بقوة داخل اللوح بينما تتحرك الحدقة الداكنة بإضطراب، يرتجف اللوح بقسوة، يحاول "مايكل" و"كرستين" التشبث بالتماثيل لكن يصعقهم اللوح عنوة ليفلتوا أيديهما، الهواء أصبح مثلجاً، رياح عاتية تهب بالمكان لتتناثر الملفات مبعثرة، لا زالت العجوز "سيرا" تشخص بالأفق صارخة كما هي، صوتها يحمل أرواحاً معذبة تمتزج مع بعضها كأنها ساقطة في بئرٍ عميق، تهتز الطاولة بقوة ثم تنقلب المقاعد الجالسين عليها لتطرح الجميع أرضاً في إهمال، يظل كف "سيرا" مقيداً

بالتمثال في اللوح العالق في الهواء، ضوء قوي يخرج من الحدقة البيضاء يعمي أبصارهم.

يصرخ "مايكل" ناظراً بوهن ناحية "ماريتشا":

- ما الذي يحدث؟

تجيبه الأخيرة وهي تقبع أرضاً وملامحها تحمل خوفاً حقيقياً لم يره فيها منذ أن أقبلت:

- لا أدري.. لكنه ليس مبشراً بالمرة.

يظل الجميع مُلقاً أرضاً مغلقين جفونهم أثر الضوء الساطع الذي يمزق أعينهم، الطاولة والمقاعد يتطايرا في أركان الغرفة كما الهشيم لدقائق شعروا معها أنها دهراً كاملاً.

حتى صمت كل شيء.

تنغلق النوافذ كما كانت، تهبط المقاعد وعلى رأسهم الطاولة مهشمين، يسقط اللوح المعدني من ثباته بعد أن التصقت بسطحه الرمال لتصبح كالنقوش البارزة خافية الحدقة البيضاء، يظل معلقاً بكف "سيرا" الذي تهاوى جانبها بدوره بينما لا زالت شاخصة البصر لأعلى، فاغرة فاهها في شكلٍ مفزع دون حركة، يهدأ الجميع ناظرين لبعضهم البعض حتى تحرك "مايكل" من جلسته متجهاً بتوجس ناحية "سيرا"، يقترب منها بأقدام ترتجف واضعاً أصابع كفه على رقبتها يتحسس نبضها.. يجده ساكناً.

يقرب أذنه من فمها.. لا نَفَس يتردد.

تقطع "ماريتشا" الصمت مرتجفة:

- لقد رحلت.

ينظر لها الأخير بريبة، يحدقا فيها الممرضتين دون رد، تنظر لهم "ماريتشا" ناطقة بحنجرة واهنة مضطربة:

- هذا لم يحدث أبداً معي من قبل.. هناك شيء غامض حول هذا الحضور المهيب.

يستطرق "مايكل":

- ثم؟

"ماريتشا" مسترسلة وهي تحدق بتركيز وخوفٍ جلي في جسد "سيرا" الهامد:

- لا أعلم.. لكن هذه الجلسة لا زالت تحمل في جعبتها ما نجهله..

ولم تنتهي بعد.

***

نهار أغسطس 1933

أحد شوارع المدينة

تكتظ الشوارع بالسيارات، لافتة المرور تقف كل بضع دقائق معلنة لونها الأحمر لتسمح بمرور المارة لمفترق الطريق، جانبي الشارع مزدحمين بالأقدام السائرة في اضطراب دون هوادة، المحال تدلفها الزبائن ما بين شراء المنتجات وآخرين للاطلاع على كل ما يجذبهم، على جانبي أحد الطرقات المخصصة للمارة وقرب إحدى المحال تجلس تلك العجوز ذات الرداء المهترئ، شعرها الأشعث رمادي اللون تتسلله الخيوط البيضاء برهاناً على زيارة الشيب العاجلة لها، ملامح وجهها التي تختفي تحت التجاعيد والأتربة من غبار أقدام العابرين، عيناها الغائرتين السوداوين، جسدها الضئيل الهزيل لا يقوى على مجابهة هذه الحياة القاسية، عروق كفيها تظهر جلية للعيان، راحة كفيها خشنة، تمسك بإحداهما كِسرة من الخبز تقضمها لتلوكها داخل فمها لتكبح بها جوعها، والكف الأخرى تمسك بكيساً قماشياً مهترئ كما هو حال زيها تحمل فيه حاجياتها من أطعمة لحين الحاجة إليها.

هذه العجوز تقبع بذلك الشارع منذ فترةٍ طويلة لم تغادره، حتى بدأ أصحاب المحال وقاطني البنايات أن يعتادوا على وجودها فلا يضجروا منها، لتجلس بدورها محدقة فيمن

يسير قُبالتها ذهاباً وإياباً، عجوز شارفت على أعوامها الأخيرة من الحياة، خرفة، لا يمكنك مجالستها أو حتى استطراد ما توده منك عندما تشير بسبابتها تجاهك وهي تبتسم في بلاهة، لذا يعهد أصحاب القلوب الرحيمة بهذه المنطقة منحها بعض الطعام والملابس القديمة كلما دلفت مقتربة منهم في صمت، حتى ترحل في سلام.

في بعض الأحايين تفقد تلك العجوز هدوءها لتبدأ نوبات الهلع والخيالات التي تصاحبها لتثير الفزع تجاه المارة وهي تهرول ناحيتهم بهيئتها الرثة، تروي لهم صارخة بضع من خزعبلاتها التي وحدها تؤمن بها، بل وحدها من تفهمها، لتعود من جديد إلى صمتها وجلستها الهادئة في ذات الركن المخصص لها من الشارع، هذا ما جعل الجميع يتغافل عن تصرفاتها الحمقاء، في الأخير هي لم تؤذي أحداً..

ولكن هذه المرة ليست كسابقيها.

لقد تعدت حالة الهياج التي تصيبها الفترة القصيرة لبضع دقائق فأصبحت تؤرق الجمع من حولها، هذا اليوم ومنذ ساعتين تقريباً وهي تركض على جانبي الطريق، تمر بسرعة محاولة تجنب السيارة التي شارفت على دهسها لولا ضغط السائق المكابح، يخرج رأسه من الزجاج متعجباً منها ومن تصرفاتها اللاعقلانية التي أصابت الشارع بمن فيه بالريبة.

تهرول العجوز متحاملة على عظام جسدها الواهنة ناحية

ذلك الشاب المار على الناحية الأخرى من الطريق، يجدها تقترب منه فيتثير قلقه لتحدثه بصوتٍ لاهث:

- لا تصدقهم.. دعني أخبرك الحقيقة.

ثم تتركه لتستوقف تلك السيدة السائرة جوارها لتقف بوجهها شاخصة البصر بطريقة مفزعة، تحدثها بهمس:

- لن تأمني العيش في هذا العالم.. إنهم قادمون.. ولن يرحموا أحداً.

يرتجف الطفل الصغير القابض بكف والدته عند رؤية هذه العجوز تتفوه بهذا الغموض وهيئتها التي تفزعه، ليضغط على كف والدته بقوة يسألها دامعاً بخوف:

- ماذا يحدث يا أمي.. من هذه السيدة؟

تنظر له والدته مطمأنة بقلق حتى لا يصاب صغيرها بمزيد من الفزع يفقده عقله:

- لا عليك يا بني.. إنها شحاذة.. لا تخف.

تعيد الأم نظرها إلى العجوز تحدثها بغضب صارخة:

- ابتعدي عني أيتها الخرفة!

تدفعها بكفها مزيحة إياها عن طريقها لتسحب ابنها جانبها مسرعين الخطى بينما تسرع العجوز إلى أحد أصحاب المحال الذي اعتاد أن يمن عليها ببعض الطعام،

تسير تجاهه مترنحة بقامتها القصيرة وظهرها الحاني لتحدثه:

- هم لا يعلمون.. أنا المنشودة.. أنا من أتت لرحمتهم.. أخبرهم بذلك!

يمد الأخير كفيه ليربت على كتفيها محاولاً التهدئة من روعها، يحدثها بنبرة حانية:

- إهدأي يا "سيرا".. ماذا بكِ اليوم؟

تجيبه "سيرا" وقد تحولت ملامح وجهها من قلقة إلى باسمة في خبث يثير حفيظته:

- هاها.. ماذا بي.. هل تراني أختلق هذا؟

هناك في أحد الأدوار بالبناية المقابلة للشارع ذلك الرجل الذي يراقب ما يحدث من روعٍ بالأسفل، هذه العجوز التي تثير الفزع في نفوس المارة، ليمد كفه تجاه سماعة الهاتف ضاغطاً بضع أرقام ثم يضع السماعة على أذنه ينتظر الإجابة وهو يتابع من خلف نافذته ما يجرى أمام ناظريه.

يجيب الرقم:

- الطوارئ.. ما هي حالتك؟

يردف بصوتٍ هادئ:

- أريد الإبلاغ عن حالة شغب.

بينما يتبادر الحديث، كانت "سيرا" تهرول كما هي في الطرقات، تمر بسرعة إلى الناحية الأخرى ثم تعود لتقف بمنتصف الطريق لتجلس، تنوح بقوة، تضع كفيها على أذنيها كأنها تحاول كبح صوت يؤذي سمعها، تناجي نفسها بكلماتٍ مبهمة:

- لا أقدر على القيام بهذا.. ماذا علي أن أفعل.. هم لا ينصتوا..

ولم يكونوا يوماً.

يقف المارة على الجانبين ليخرج أصحاب المحال مجتمعين يتابعونها في صمت ووجس مما أصابها اليوم، لم يعهدوا تطور حالتها العقلية بهذا الشكل، السيارات تقف عاجزة عن المرور حتى لا يدهسوها أسفل عجلاتهم.

انقضت ساعة أخرى على هذا الحال وهي تجلس القرفصاء على الأرض، تنوح ثم تضحك في هيستيريا واضحة، حتى دقت صافرة سيارة الشرطة ومن خلفها سيارة أخرى للإسعاف، تقترب السياراتان منها ليقفا ثم يترجل رجال الشرطة ذاهبين تجاه المارة ليمنعوهم من الاقتراب، بينما يخرج رجلين آخرين من سيارة الإسعاف يرتدون زياً تمريضياً مقتربين من العجوز، يمسكانها بإحكام من ذراعيها ناهضين بها من جلستها، تقابلهم الأخيرة بابتسامة بلهاء دون أدنى مقاومة منها، يدخلاها السيارة ثم يدلفا من خلفها مغلقين

الباب من خلفهم، يتحرك رجال الشرطة إلى سيارتهم ذاهبين جميعاً.

يعود الطريق كما كان، يحاول المارة تناسي ما حدث للتو، أصحاب المحال يعودوا لمتابعة أعمالهم، السيارات تُدار محركاتها لتسير تباعاً مكملة طريقها.

وكأن شيئاً لم يكن.

***

26 فبراير 1960

4:15 نهاراً

الجامعة

تجلس داخل إحدى قاعات المحاضرات التي تحولت اليوم إلى غرفة لتغيير الملابس تجهيزاً للفتيات القائمات على الحفل بمناسبة حضور لفيف من الدفعات الجديدة إلى الجامعة، الزحام خانق، أقدام تتحرك ذهاباً وإياباً في كل الطرقات، أحد العاملين يحاول تنظيف الأرضيات من خطوات الأقدام المتكررة، وآخر يجهز الإضاءة تمهيداً لبدء الحفل، كانت "كلير" بدورها تتجهز أمام المرآة مرتدية فستانها الرمادي الأنيق لإلقاء الكلمة الافتتاحية والمرحبة للحضور المهيب، تاركة من خلفها كل هذا الصخب الصادر من الفتيات الأخريات حول إبداء آرائهن لبعضهن البعض حول مظهرهن اللائق، ترتدي "كلير" حذائها ذو الكعب العالي رمادي اللون يحمل نفس رونق فستانها الأنثوي الذي يبرز مفاتنها، ذراعيها العاريان، عيناها الزرقاوان، شعرها الفاحم مسترسلاً على كتفيها، رفيعة متناسقة الثنايا، مائلة للقصر المحبب للفتيات، محدقة في مرآتها واضعة بضع من مساحيق التجميل لتزيدها جمالاً، ترتبك قليلاً محاولة الإسراع، لقد أقبل الوفود وسيُقام الحفل بعد قليل.

تنتشلها من شرودها "ماجي" التي دلفت من الباب بنبرة متعجلة:

- هلمي يا "كلير".. لقد حضر الجميع داخل المسرح.

تردف "كلير" دون النظر إليها مكملة تجهيز مظهرها في المرآة:

- حسناً.. لقد أوشكت على الانتهاء.

تقاطعها الأخيرة:

- يكفي هذا.. إذا حضر العميد ولم يجدكِ فعليكِ أن تبحثي عن منحة دراسية أخرى خارج هذا المبنى.

تنظر لها "كلير" مجيبة بسخرية ضاحكة:

- لا.. لا داعي لهذا.. لقد انتهيت بالفعل.

تقف "كلير" من جلستها ليخرجا الاثنتين تاركين غرفة الملابس متجهين إلى الرواق، يهرولا بطريقة لا تتناسب مع أزيائهما النسائية الرقيقة وأحذيتهم العالية، يكادا يسقطا ليتحاملا على سواعد بعضهما البعض.

تردف "ماجي" متسائلة:

- هل أتممتِ كلمتكِ الافتتاحية؟

تقف "كلير" مصعوقة لتضرب براحة يدها على جبينها ناطقة بأسف:

- يا إلهي.. لقد نسيت أن أجلبها.. إنها بخزانتي.

تعاتبها الأخيرة بنبرة مؤنبة:

- حتماً تسعين لفصلنا.. هيا تحركي لنأتي بها.

يسرعا الاثنتين سالكين رواقاً آخر، يتابعا أرقام الخزانات حتى وجدت "كلير" خاصتها، تقف أمامها تعبث داخل حقيبة يدها الصغيرة ذات لون الفستان الفضفاض مخرجة مفتاحها، تبحث داخل الخزانة بين الكتيبات والأغراض الدراسية حتى عثرت على مظروفها، لتغلق الخزانة ساعين نحو المسرح بخطوات تكاد تحلق.

يصلا إلى غرفة الكواليس من الخلف لتقابلهما إحدى المسؤولات المنظمات للحفل لائمة:

- أين كنتما؟!

تردف "كلير" معتذرة:

- كنت أحضر الكلمة الافتتاحية من خزانتي.. آسفة على التأخير.

تجيبها المحاضرة متعجلة:

- لا يهم.. هيا استعدي.. ستدلفين بعد دقيقتين.

تتركها الأخيرة وترحل دون سماع رداً منها، بينما تنظر "كلير" إلى صديقتها متسائلة بتوتر:

- ما رأيكِ.. هل هناك خطب في مظهري؟

تمعن "ماجي" النظر فيها مطولاً متجاهلة الصخب الدائر من حولها، تنطق ببسمة حانية:

- الخطب الوحيد سيكون بلُب الحاضرين الذي ستسرقينه.. أيتها الفاتنة.

قلب "كلير" يتراقص طرباً، تحمر وجنتيها خجلاً مردفة:

- ستظلين داعمتي إلى الأبد.

يحتضنا بعضهما البعض بدفءٍ يريح قلبيهما، تنادي المحاضرة على المسرح مقدمة "كلير فوجان"!

ليفك الاثنتين ذراعيهما ناطقة "ماجي" بسخرية محببة:

- ليس الآن الوقت الأنسب للحنين.. لديكِ خطاب.. هلمي.

تضحك "كلير" مستطردة:

- حسناً يا هادمة اللحظات الجميلة.

تتحرك بخطوات متوترة بعد أن هدأ الحضور من خلف الستار منتظرين إطلالتها، تنفرج الستار على الجانبين كاشفة عن تلك الفتاة الجامعية ذات الرداء الراقي، تقف في مواجهتهم أعلى المسرح كما الملائكة التي تعلو بها السُحُب في وضعٍ مهيب يليق بمقامها.

ينظر لها الجمع مبهوتاً ما بين فتيات يغرن من جمالها الأخاذ، وفتية يستثاروا تجاهها محاولين اغتنامها في مخيلاتهم الشهوانية، تتنحنح "كلير" بدورها ناظرة يمينها خلف الستار إلى صديقتها التي تشجعها مطمأنة إياها، ثم تفتح الخطاب خشن الملمس دون اكتراث لتخرج منه الورقة المطوية التي تحمل كلمتها الافتتاحية لهذا اليوم، والتي جاهدت لأيامٍ مضت حتى تكن بهذه اللباقة والاتزان في اختيار ما ستسرده.

تلقي نظرة خاطفة إلى الجمهور لتردف باسمة:

- "باسم جامعتنا العريقة.. باسم أساتذتنا المتفانين في عملهم لتلقينكم كل ما يملكون من علم على أكمل وجه.. باسم كل طالبٍ ينتمي إلى هذا الصرح العظيم.

معكم زميلتكم "كلير فوجان".. نرحب بلفيف من الطلاب الجدد داخل حرمنا الجامعي.. متمنين جميعاً أن تكن تلك الاحتفالية التي أُعِدت خصيصاً لكم بمثابة ترحيباً يليق بكم.. وبحضوركم الكريم..".

تتوقف "كلير" عن الاسترسال محدقة بإستغراب داخل خطابها لبرهة، يتابعها الجمع الغفير في القاعة منتظرين بتعجب، حتى عادت من شرودها ناطقة بصوت قلق ونبرة متقطعة:

- "أهلاً وسهلاً بكم.. واستمتعوا بالحفل".

لم تعطي بالاً لتصفيق الجمهور تحيةً لخطابها الجميل، لتهرع من أعلى خشبات المسرح بطريقة مرتبكة متجاهلة "ماجي" التي تناديها بقلق، تسير بخُطى متوترة حتى خرجت من وسط الزحام تجاه خزانتها، تخرج مفتاحها بتوتر من حقيبتها الصغيرة محاولة فتح باب خزانتها العالق، تعبث ما بين الكتيبات عن خطابها الذي كتبته بخط يدها فلا تجده.

تمسك بالورقة المطوية ذات الملمس الخشن الذي يثير ريبتها الآن رغم عدم اكتراثها منذ قليل، تحدق في آخر سطرين أثارا هلعها ليجعلا قلبها يثب فزعاً:

"كلير فوجان.. يوم 10 مارس.. الساعة 11:00 مساءً.. المشفى العقلي.. يجدر بكِ ألا تتأخري".

***

2 مارس 1960

بعد منتصف الليل

غرفة "روشال ديفيد"

لا زالت تتأمل ظلام الليل، هطول وابل من الأمطار تصاحبها هذه الأمسية، منذ أن بدأت في السرد قبل سويعات طويلة وهي تقف عاجزة عن إكمال ما بدأته، تترك الآلة الكاتبة وأوراقها المتناثرة على سطح الطاولة لتقوم من جلستها متثاقلة، تترنح داخل أرجاء المنزل تجاه المطبخ لتُعِد لنفسها قدحاً من القهوة يعينها على كبح شتات تفكيرها، تقف أمام المشعل دقائق ثقيلة في صمت تتأمل وجه القهوة الداكن الذي قارب على الفوران، تلتقطه في البُرهة الأخيرة مُزيحة إياه بعيداً عن اللهب، تقوم بإفراغ تلك الحبيبات البنية السائلة داخل القدح، لطالما كانت قهوتها هي المُعينة لها في لحظات تشتتها.

تعود إلى غرفتها من جديد لتجلس على مقعدها الوثير ثم تلقي ببصرها تجاه نافذتها، تتأمل في صمت حتى هذه اللحظة في السواد الذي يحيط بكل شيء في الخارج، تنساب روحها مع قطرات المطر التي ترتسم على زجاج النافذة، ترتشف بضع قطرات من القهوة كل حين لتدفئ جوفها، ثم تضع القدح فوق الطاولة أمامها لتطبق ساقيها

أسفلها، واضعة كفيها داخل جيوب سترتها الصوفية الثقيلة لتقيهم شر هذا البرد القارس الذي يجعلها ترتعش بقوة.

تشعر بالأسى، عدم قدرتها على إنهاء عملها يجعلها واهنة، هزيلة، كأنها تكتب للمرة الأولى لها، لطالما اعتادت أن تكتب رواياتها السابقة بطريقة تجعل مُريديها يثنوا على قدراتها اللغوية وخيالها الذي يفوق قدرة الكثير من منافسيها، تحب الغموض، تعشق مبدأ أن هناك شيء مُبهم يحدث بين السطور لا يجرؤ القارئ على استنتاجه منذ الوهلة الأولى، تبحث دائماً عن الأفكار المضطربة التي لا تطرأ سوى على عقلٍ مريض، غير متزن، هذا النوع من الحكايات هو ما يبحث عنه القارئ الشغوف بالقراءات المثيرة، هكذا تمكنت من حصد المريدين لقلمها رغم صِغَر سنها.

هذه الفتاة الراقية ذات الملامح الطفولية الهادئة، لا يمكن لأحد عندما يبصرها أن يجزم أن هذه الفاتنة تحمل داخل دماغها خيالاً يشتعل له الرأس شيباً، الآن تسير في ربيعها الخامس والعشرين ولها باع ثقيل من الأعمال المثيرة للجدل، رغم أن أعمالها قليلة لكنها نالت الثناء الكامل، وهذا ما يجعلها تسعى دائماً لأن تكتب ما لم تكتبه من قبل، رغم هذا إلا أنها تعجز عن إنهاء روايتها الحالية، هاجس داخلي يخبرها مراراً أنها ليست مستعدة بعد، فارغة، لا تملك بجعبتها المزيد من الأفكار التي تتوالى

عليها دوماً لتعينها، أفكارها الغريبة التي صاحبتها طوال الفترة المنقضية لتخرج أعمالها بهذه القوة للنور، شعور مؤسف أنها تريد أن تسرد ثم تخرج ورقتها بيضاء ناصعة أسفل قلمها.

كم هذا مؤلم لنفسها..

مر ما يقرب من ساعةٍ أخرى على هذا المنوال، صمتها المطبق، عيناها المسبلتان تجاه النافذة، صوت قطرات المطر التي تؤنس وحدتها، قدح القهوة الذي فرغ منذ قليل تاركاً إياها تسرح في غياهب أفكارها، تلقي ببصرها ناحية الآلة الكاتبة تتأملها في شرود، ثم تسقط ساقيها القابعتين أسفلها أرضاً لتزحف بمقعدها قليلاً قُرب الطاولة، محاولة كبح زحام أفكارها الذي يطرد أي طارئة تمسك بساعدها لتجرها إلى إنجاز عملها المتقن هذا، تتنفس بهدوء محاولة الثبات وإزاحة كل ما يؤرق خاطرها، تقبض بكفيها على مجموعة الأوراق البيضاء المتناثرة على أطراف الطاولة لتُعيد ترتيبها، ثم تضعها بجانب آلتها، تتجه بأصابعها الرفيعة فوق أزرار الآلة مفكرة لبرهة، تبدأ بالضغط على الحروف المتتالية لتطبعها الأخيرة في صمت ناثرة الكلمات بجانب بعضها البعض.

سطراً يكتمل لتزبح "روشال" المسطرة بداية من السطر التالي، تتابع الأفكار المتلاحقة في رأسها لتسقطها على الورقة بسرعة بالغة حتى لا تفوُت تفصيلة هامة تندم عليها،

دقائق تمر سريعاً عليها وهي لا زالت تسترسل ما تتخيله أمام نُصب عينيها من أحداث، كأنه فيلم تصويري تُعرَض مشاهده تباعاً لتعيد بدورها صياغته مستخدمة ألفاظها القوية والمحببة لمريديها.

حتى انتهت من الصفحة الأولى في غبطة اجتاحتها، تسحبها من خلف المسطرة، ترتدي نظارتها الطبية مقربة الصفحة من وجهها، تقرأ ما سردته للتو:

"روشال ديفيد.. يوم 10 مارس.. الساعة 11:00 مساءً.. المشفى العقلي.. يجدر بكِ ألا تتأخري".

حدقتا عينيها تكادا أن تخرجا من محجريهما، سطرين فقط هما المكتوبان في الصفحة بأكملها، الأدهى أن هذه الكلمات لم تكتبها، لم تتذكرها.. بل لم تفكر بها قط!

تلقي بالورقة أمامها على الطاولة ثم تسحب سريعاً ورقة بيضاء أخرى فارغة تماماً، تنظر فيها بتركيز من الجانبين لتتأكد أنها ناصعة البياض ثم تعيد وضعها في الآلة الكاتبة، تضغط بأصابع مرتعشة على الحروف مسترسلة أحداث روايتها التي فكرت بها منذ قليل، كلمة تلو الأخرى ليكتمل سطر وتلجأ للتالي، حتى أعلنت الصفحة عن انتهائها لتسحبها وتنظر فيها محدقة.

فارغة تماماً سوى من:

"روشال ديفيد.. يوم 10 مارس.. الساعة 11:00 مساءً..

المشفى العقلي.. يجدر بكِ ألا تتأخري".

لا تصدق ما تقرأه بأم عينيها، تشعر أنها فقدت عقلها أثر هذه الصدمة..

من أين أتت بهذه الكلمات المريبة؟!

بل من الذي يسردها؟!

تلقي بالورقة جانباً جوار سابقتها وتعيد الكرة للمرة الثالثة، دقائق تمر عليها ثقيلة مضطربة لتخرجها فتجدها كما توقعت..

عشرات المرات وهي تُعيد صياغة كتاباتها ثم تخرج الصفحة مُعلنة عن نفس ما حدث سابقاً، وكأنها تأبى أن تنصاع لأوامرها وتذكر شيئاً مما سردته سوى هذين السطرين الغامضين.

تنظر على الطاولة ومن حولها في أركان الغرفة لتجد الأوراق المتناثرة في كل ركن يحيط بها، جميعهم يحمل نفس الكلمات القليلة المقتضبة، تشعر أن غصة اجتاحت فؤادها، ترتعش أطراف أصابعها في فزعٍ حقيقي، لا تدري سر ما يجري هنا، لتقوم بغتة من مقعدها متجهة إلى فراشها، تطفئ المصباح الهادئ بجانبها الذي كان يؤنسها ليعم الظلام الغرفة، تتدثر أسفل الغطاء وهي تلهث في صمت تاركة كل شيء كأنه مجرد خيالات ينسجها عقلها المضطرب نتيجة سهرها، ربما هو عقلها الذي كاد أن يتلف

من أثر التفكير البالغ طوال الفترات السابقة، تتكور في نومتها بوضعٍ جنيني مكررة بحنجرة هامسة ترتجف:

- هذا لا يحدث.

- إنها مجرد خيالات.

- هذا لا يحدث.

- إنها مجرد خيالات.

- هذا لا...

***

10 مارس 1960

11:00 مساءً

المشفى العقلي

يقف متأملاً ذاك الباب الحديدي الصدئ في ثبات، تغشاه بناية من أربعة طوابق متهالكة، يكشف له ضوء القمر الخافت المحيط من حوله كأشباح عملاقة سوداء، زجاج النوافذ مُهَشَم يبعث السواد من خلفه، أطلال حديقة ذاقت زروعها قديماً طعم الظمأ حتى جفت تماماً، لتتحول من سُبُل ناعمة خضراء إلى أشواك قاسية تمزق أقدام من يطأها، الظلام يعم المكان بأسره، صمت مطبق يثير ريبته، فقط بضع همهمات البوم القابع في شموخ على غصون الأشجار الجافة، لتُضئ عينيها الواسعة مسببة هلع داخله، لا يزال يقبض على مظروفه الخاص بقوة، طوال الليالي الماضية وهو لا يكاد يصدق ما حدث معه، كيف وصل له هذا المظروف بتلك الطريقة الغامضة، حتى أنه اقتنع أن عقله بدأ في التحلل إثر مخدراته البيضاء التي تسبح بعروقه، لا يزال يُذَكِر نفسه كيف انصاع لفحوى الرسالة حتى وطأت أقدامه الآن واقفة أمام المشفى مرتعشة، في الأخير هو لم يملك خياراً سوى القدوم بمحض إرادته ليعلم من الذي يعبث به هكذا.

يستجمع شتات نفسه ليتحرك بأولى خطواته ناحية الباب الحديدي، يزيحه بكفه، يترنح جانباً مصدراً صريراً عالياً يصُم أذنيه، مما جعل جسده يقشعر بشدة، يدلف إلى الداخل بتؤدة، خطوات قليلة يُهَشِم فيها تلك الأشواك القاسية أسفل قدميه حتى وصل إلى عتبات باب المشفى العملاق، باب معدني شامخ يحمل نقوشاً بارزة غامضة، يتلمسها بأطراف أصابعه لتصيبه برعشة، يحمل لوناً فضياً يعكس ضوء القمر عليه، يمد كفه تجاه مقبضه، له ملمس غريب لم يتحسسه من قبل، يلف مقبض الباب لتصدر دقة انفراجته بثِقَل إلى الداخل مُعلناً السواد من خلفه، يقف "بيتر" قلقاً، يكاد قلبه أن يقفز من جوفه، يفكر جدياً في العدول عن هذا القرار الأحمق الذي قد يودي بحياته، إلى أن وجد في آخر البهو المظلم تلك الطاولة المضيئة، تصل إليه إضاءتها واهنة لا يقدر على تبَيُن ملامحها، يخطو بقدمين مضطربتين تجاهها، كل شيء مظلم من حوله سوى تلك الطاولة المحيطة بخمسة مقاعد، حتى وصل إليها، يجد هذين الاثنين القابعين حول الطاولة ينظرا ناحيته بتعجب صامتين، يحدق فيهما بدوره ثم ينظر لذاك اللوح المعدني القابع أعلى الطاولة وجواره المصباح الزيتي المُضئ بنيرانه المتوهجة.

يتساءل "بيتر" بتوتر موجهاً نظره ناحيتهما:

- هل.. هل أنتما من أرسل لي ذاك الخطاب؟

ينظر الإثنين لبعضهما البعض في بلاهة، تردف الأخيرة بسؤالٍ بلاغي:

- أي خطاب؟!

يمد "بيتر" كفه المرتعشة تجاهها، تتلقف الخطاب القابع بكفه، نفس الملمس الخشن المريب، تخرج الورقة المطوية داخله لتقرأ فحواها مُقربة وجهها من المصباح لينير لها، يقاطعها الأخير الجالس قُبالتها بنبرة واثقة موجهاً ناظريه إلى "بيتر":

- إنه يحمل نفس الخطاب المجهول.

تنظر له الأخيرة مستنكرة لتسأله بإستغراب:

- وكيف لك أن تعرف؟

يجيبها باستهزاء ناظراً تجاهها:

- وهل سيأتي إلى هنا بدعوة للعشاء داخل الخطاب؟!

تشعر بالحنق لاستخفافه بحديثها لتُقبِل على الرد قبل أن تستوقفها صوت قدمي تلك الفتاة العشرينية حاملة المصباح الكهربي المضئ قادمة من باب المشفى، ينظر ثلاثتهم تجاهها دون تبين ملامحها حتى اقتربت منهم وعلامات القلق تظهر جلية على وجهها، تقف عل بُعد خطوات قليلة منهم تسألهم في ريبة:

- من أنتم؟!

يقترب "بيتر" ناحيتها بخطوة مُحيياً بابتسامة بلهاء:

- مرحباً.. أُدعى "بيتر فيرن".. سعيد لرؤيتكِ.

يمد كفه ليصافحها لترجع بدورها خطوتين إلى الوراء متوجسة، يدرك الأخير حرجه ليوجه كفه ناحية الاثنين الجالسين مُعرفاً:

- وهذان.....

ينظر له ذاك الجالس صاحب العوينات الطبية بتقزز من سفاهته، ثم يعود بنظره إلى الغريبة ناطقاً بثِقَل:

- أُدعى دكتور "روبرت كلارك".

تردف الثانية الجالسة قُبالته دون النظر إليها واضعة كفيها على وجهها بتكاسل:

- أنا "كلير فوجان".

يُعيد "بيتر" نظره إليها بذات ابتسامته البلهاء ليتحرك تجاه مقعد فارغ من الثلاثة الآخرين بجانب "كلير"، يهم بالجلوس ليُشير إلى تلك الواقفة بكفه ناطقاً:

- تفضلي بالجلوس.

تقترب الأخيرة بتوتر للمقعد المجاور "لروبرت"، تجلس فوقه ثم تردف بنبرة هامسة مضطربة:

- أنا "روشال ديفيد".. روائية.. و..

يقاطعها "روبرت" منهياً حديثها بنبرة متململة:

- لا يهم.. نحن لم نأتِ إلى هنا لتكوين صداقات.

تحدق فيه "كلير" بتعجرف من تصرفه الساذج مُحدثة الأخيرة:

- إذاً.. هل أنتِ مدعوة أيضاً؟

"روشال" مستفهمة:

- مدعوة.. على ماذا.. لقد حدث معي شيء غريب.. هناك ورقة لا تكف عن الظهور تحمل موعداً لحضوري إلى هنا هذه الليلة.. لا أعرف كنهها.

تُجيبها "كلير" مطمأنة:

- لا عليكِ.. جميعنا هنا كذلك.. نحمل ذات الخطاب مع نفس الدعوة.. لا أعلم أي صدفة تلك.

يأتي الصوت الأنثوي الواثق من خلفهم جميعاً تجاه الباب:

- هذه ليست صدفة بالمرة!

يتحرك أربعتهم برأسه تجاهها في فزع، يتأملوها في الظلام، لا تحمل مصباحاً كما المعتاد في مثل هذه الظروف، فقط ضوء القمر الباهت يظهر جسدها الرفيع كظل لشبحٍ يقف بشموخ، تدلف إلى الداخل بخطوات واثقة لا تخشى كنه المكان المظلم من حولها حتى كشف ضوء

المصباح عنها، تلك العشرينية الغانية صاحبة النظرات الحادة.

تتوجه "روشال" بسؤالها المتوتر:

- هل أنتِ من أتى بنا إلى هنا؟

تجيبها الأخيرة بنبرتها الهادئة:

- إهدأي.. أُدعى "إيما".

لا يزال الجميع محدقاً بها، متعجبين من ثباتها الانفعالي الذي يهز أركانهم، كيف لهم جميعاً أن يُصابوا بالهلع من هذا المكان المهجور، الظلام، تلك الرفقة الغريبة، الخطابات المبهمة، بل الأمر برمته، وهي تملك هذا الهدوء.

لتنظر "إيما" بدورها إلى المقعد الأخير الفارغ، تسحبه بكفها لتجلس فوقه مسترسلة:

- يبدو أنهم توقعوا حضوري.. على حد علمي أنا الأخيرة.

يسألها "روبرت" بتعالي:

- أنى لكِ أن تزعمي هذا؟

تنظر له مجيبة بابتسامة مستخفة:

- لا توجد مقاعد أخرى شاغرة.

يفحمه ردها الذي أرسل له إشارات غباء حقيقي لعقله،

بينما ترتسم الابتسامة المتشفية على شفتي "كلير".

يوجه "بيتر" حديثه للأخيرة:

- لم تجيبي على سؤالها.

تستطرد "إيما" بلا مبالاة:

- لستُ من أتى بكم إلى هنا.. لقد أتاني خطاب مثلكم.. وقفت أمام الباب خلسة عندما شعرت بهمسكم بالداخل.. أنصتُ إلى حديثكم.. عندما علمتُ أنكم مثلي دلفت.

تتغير ملامحها من الواثقة إلى المضطربة فور أن ألقت ببصرها على ذاك اللوح المعدني القابع بسكون أمامهم أعلى الطاولة، لتهم بسؤالها بقلق:

- ما الذي أتى بهذا اللوح إلى هنا؟!

يحدثها "روبرت" بذات عجرفته:

- هل تعرفي شيئاً عنه؟

ترد دون إزاحة نظرها عن اللوح:

- أكثر مما يطرأ على بالك.

تردف "كلير" بقلق:

- وأنا أيضاً!

ينظر إليها "روبرت" متعجباً ليسألها:

- ماذا.. لماذا لم تخبريني منذ أن أتيتِ؟

تجيبه بصوتٍ هامس وعلامات قلق تظهر جلية على وجهها:

- لأني لا أريد أن أتذكر ما مررتُ به مع هذا الشيء اللعين.

تقاطعها "إيما" مستفهمة:

- حقاً.. وبماذا مررتِ يا تُرى؟

تشعر "كلير" بالاستهانة بينما يحدق فيها الباقين منتظرين أن تتفوه بما تخفي داخل جوفها، لتردف بحنجرة مضطربة:

- حدث الأمر منذ سنواتٍ طويلة.. عندما كنت طفلة.. كانت صديقتي قد رحلت جدتها.. وقد دلفنا إلى غرفتها لنعبث ببعض أغراضها..

تقاطعها "إيما" محدقة:

- تُدعى "إيما" على سبيل المثال؟

تشخص "كلير" ببصرها ناحيتها مردفة:

- وكيف عرفتي؟!

تبتسم الأخيرة بسخرية لتردف وهي تنظر في الفراغ المقيم أمامها:

- أتعلمين.. قرأت قديماً في إحدى الحكايات أنك مهما

ابتعدت.. تغيرت الأماكن.. البُلدان.. حتى وإن مر عُمرك لتزورك الشيخوخة.. حتماً ستقابل كل من مررت بهم في طوال حياتك.. سواء هجرتهم أم لا زلتم متقاربين.. ستقابلهم.. ولو لمرة أخيرة.

يا لها من حكايا.

تعود ببصرها تجاه "كلير" لترد كأنها تذكرت سؤالها للتو:

- آسفة على تجاهلي.. مرحباً بكِ.. أُدعى "إيما واطسن".. حفيدة "ماريتشا ستيفن".. صاحبة ذاك اللوح!

يشخص الجميع ببصره تجاهها غير مصدقين ما يحدث، تبادلهم الأخيرة النظرات المبتسمة اللامبالية، تحدثها "كلير" متمتمة":

- أنتِ.. أنتِ "إيما".. صديقة طفولتي؟!

تجيبها "إيما" بذات نبرتها الواثقة وكأن كل ما يحدث لا يُطرِف لها جفن من عينيها:

- أعلم أنها مُصادفة لا تحدث يومياً في حياتنا.. لم أصدق ذلك القول المأثور أبداً.. كنت أوقن أنه ضرب من الخيال.. ولكنه الآن خيب ظنوني.

تستطرد "كلير" بنبرة متهدجة ولا زالت تستوعب ما يجري:

- أين كنتِ طوال هذه السنوات الماضية؟

تقاطعها "إيما" منهية الحديث العاطفي المُمِل لشخصها:

- حسناً يمكننا أن ننتهي من ليلتنا الغامضة هذه وبعدها نسترسل الحديث ومشاعرنا المفقودة في وقتٍ آخر.

تتعجب "كلير" من حِدتها لتبادرها "روشال" الحديث:

- قُلتِ سلفاً أنكِ تعرفين الكثير حول هذا اللوح.. هلا أخبرتِنا؟

تنظر لها "إيما" ملياً، يظهر على ملامحها الوهن كأنها تتذكر جبلاً يطبق على صدرها، تستنشق الهواء محاولة جمع شتات نفسها ناطقة بهمسٍ خافت:

- بدأ الأمر منذ أن رحلت جدتي، نهار جنازتها عبثنا أنا و"كلير" -ناظرة تجاهها- بغرفتها ليقع في أيدينا ذلك اللوح، ثم ظهر ما اقشعرت له أبداننا.. راودتني الكوابيس لسنوات تزورني جدتي صارخة بكلمة واحدة..

"لا تعبثي بأشيائي".

ناهيك عما جرى لوالدتي، رأيتها في حالة جعلتني أفقد وعيي رعباً، لحظاتها الأخيرة وهي تتألم ممسكة بذاك اللوح داخل غرفتها، أعلى فراشها.

لم يغب هذا المشهد عن بالي يوماً واحداً، لذا عقدت النية على أن أبحث وراء سره، ظللت أعواماً مذ أن كنت في الخامسة عشر من عمري وحتى عامين انقضوا أُراجع كل ما

يقع تحت يدي عن شيء مثل هذا اللوح.

ولكني رجعت خالية الوفاض، لا شيء يصفه، وكأنه لم يظهر قبلاً سوى لجدتي، حتى وجدت مجلداً غامضاً مُهترئ، لا أذكر اسمه، فقط كان يسرد أعاجيب لم يقابلها البشر بعد، إلى أن وجدت فصلاً أثار فضولي.

"عين الرب".

تتابع حديثها وهي تشير بسبابتها تجاه اللوح:

- لقد وضع هذا الفصل رسماً تخيلياً للوح، تلك المنحوتات الغامضة على سطحه، الرمال السوداء، التماثيل الجهنمية تلك، حتى العين البيضاء.

ويبدأ كل شيء بعدها.

يقاطعها "روبرت" شاعراً بملل يجتاح جلسته:

- هلا اختصرتِ رجاءاً وأخبرتِنا ماذا يفعل ذاك اللوح بالضبط، وما علاقته بنا وبقدومنا إلى هُنا؟

ينظر له الباقين معاتبين كالعادة على سخافة تدخلاته، تتجاهله "إيما" مكملة:

- يقول المجلد أن هذا اللوح صُنع بيدٍ خفية، لا تنتمي لعالم البشر، هذه التماثيل هي تجسيد لحاملي اللوح المكنون القابعين بعالمهم الذين نالوا قدراتٍ شارفت على أن يكونوا آلهة، هذا اللوح لا يستخدم سوى للظلام

وأفاعيله، ولا يستثني أحداً، ما دُمت استعنت به ليعاونك على فعلتك الشنيعة فلقد وقعت ميثاقاً حياً بينكما، وسيعود لأخذ ثَمَن ما قدمه لك.

مهما كلف الأمر.

ومهما مر من العقود.

يضع "بيتر" كفه في جيب سترته ليخرج لفافة ورقية صغيرة بحجم عقلة الإصبع، يفتحها لُيسقِط فحواها على ظهر كفه الأخرى ثم يقربها من إحدى فتحتي مناخريه يستنشقها بقوة.

يتابعه الجميع في ذهول من فعلته ليردف "روبرت" بعصبية:

- ماذا أنت بفاعل أيها المختل؟!

يحدثه "بيتر" وهو يسقط الجرعة المتبقية على ظهر كفه:

- دعك مما أفعله.. اهتم بشؤونك الخاصة.

ليسحب بفتحة منخاره الأخرى جرعته، يُلقي باللفافة أمامه على الطاولة ثم يفرك براحتي كفيه جانبي رأسه محدقاً في الأفق، يردف دون النظر إليهم وهم لا يزالوا يتابعونه باشمئزاز:

- ليس هذا وقت الحساب أيها السادة.. فنحن على مشارف ليلة قاحلة.. على الأقل إذا لم أعِش للغد فسأرحل

إلى الجحيم وأنا مُنتشي.

تقطع "روشال" شرودهم موجهة حديثها المضطرب إلى "إيما" اللامبالية بما يحدث:

- ماذا تعني بحديثكِ.. أن هذا الشيء سينتقم منا.. ولكنني لم أفعل شيئاً. بل إني أتيت إلى هُنا لأني شعرت أنه ربما أجد ضالتي فيما أكتبه داخل رواياتي.

تردف "إيما" دون انبهار:

- ليس بالضرورة أنتِ.. ابحثي عما فعله أقاربكِ.. والديكِ.. أياً يكن.. ما عدا أصدقائكِ.

"كلير" مستفهمة:

- ولماذا ليس أصدقاؤنا؟

"إيما" مسترسلة:

- لأنه الدم.. ستنالين عقاب من أجرم.. من دمكِ يا صديقتي.

يستطرد "روبرت" حانقاً:

- هذا هراء.

تنظر له "إيما" مجيبة بهدوء:

- ومن قال لك أني أُصدق ما قيل.. في الأخير إنه مجرد مجلد بالي.

يصمت الجميع ليعُم السكون من حولهم، ظلام يسدل سِتاره على كل شيء محيط بهم سوى وجوههم واللوح المُنيرين أثر المصباح الزيتي المُشِع.

تردف "إيما":

- أعلم أني سألاقي الكثير من الويلات إثر أفاعيل جدتي.. لطالما توغلت داخل كتيباتها الغامضة.. وهذا اللوح اللعين..

ماذا عنكم؟

يصمت الجميع كل منهم ينظر للآخر، تنطق "روشال" بعد بُرهة:

- جدتي كانت تُدعى "ماكفي إيرن".. عرفتُ قديماً أنها قامت بأموراً وحشية في عملها.. لكنني أجهل ما هي؟

يعود "بيتر" من شروده هامساً:

- اسمي "بيتر جاك إدوارد فيرن".. كان طبيباً مفتشاً بإحدى اللجان الرقابية على الأطباء وقد تمت إقالته من عمله نتيجة خطأ طبي أودى بحياة مريضٍ ما.

تتنحنح "كلير" مسترسلة:

- جدتي أيضاً كانت ممرضة.. "كرستين سميث".. وقد توفت إثر حادث أليم.. هذا جل ما أعرفه عن حياتها.. لم

أقابلها قط.

ينظر الجميع تجاه "روبرت" الذي يشعر أنهم يضيقوا عليه الخِناق ناطقاً بتوتر:

- أنا ؟!

لا.. أنا طبيب ولم أقم بمثل هذه الأمور الشنيعة..

يقاطعه "بيتر" مبتسماً بسخرية:

- أيها الطبيب.. أنت لم تأتي إلى هنا بمحض إرادتك.. ولا أعتقد أن خطابك وصل عن طريق الخطأ.

ينظر إليه "بيتر" ضاغطاً على كلماته بإستخاف:

- أم أنك مدعو على العشاء الليلة؟!

ينظر "روبرت" ملياً لهم، صامت لبرهة، لا يجد مفر من الحديث ليتفوه وهو منكس الرأس بصوتٍ مهزوم:

- جدي كان طبيباً.. "مايكل كلارك".. عمل مديراً لهذا المشفى عندما كان لا يزال تحت الخدمة.. كانت لديه مذكرات خاصة به يخفيها، وجدتها بعد وفاته بسنوات داخل مخبأ في مكتبته بعيدا عن الأنظار.

يصمت لثوانٍ بينما يحثه "بيتر":

- هيا أكمل.. لا وقت للندم على الماضي.

يسترسل الأخير متجرعاً إهانته:

- يعترف فيها أنه قام بقضاء نحب أحد النزلاء.. وذكر اسمي معاونيه في تلك الجرائم.. "كرستين سميث" و"ماكفي إيرن".

تنظر "روشال" إلى "كلير" بدورها محدقتين بوجه بعضهما البعض، غير مصدقين ما يطرأ على مسامعهما.

يُلقي "بيتر" بسؤاله:

- ولماذا هذا المكان بالتحديد.. والموعد؟

يردف "روبرت":

- لأنهم جميعاً عملوا بهذا المشفى منذ عقود.. قبل أن يُهجر.. أما عن الموعد فصدقني لا أعلم عنه شيئاً البتة.

تنطق "إيما" بهمس متأملة في اللوح:

- الموعد والمكان ليسا من قبيل الصدفة أبداً.. هناك ما حدث في ذلك الوقت بالماضي.. صدقوا هذا أو لا.. لكنه شيء لا يُغتفر.

يبدو أننا مُقبلين على تكفير ذنوب أفعال لم نقم بها داخل جدران هذا القبر اللعين.

لينغلق باب المشفى المعدني بقوة هادرة بمجرد أن أنهت جملتها، مما جعل أرواحهم تتواثب خارج أجسادهم فزعاً وهم ينظرون تجاهه كابحين أنفاسهم، ليعُم الظلام كل شيء من

حولهم.

تتلاقى أعينهم المحدقة برعب، فاغرين فاههم، لا يقدرون على جمع شتات أنفسهم، أمست الطاولة هي الوحيدة المضيئة بفعل المصباح الزيتي، ليُلقي بنوره على وجوههم بينما كل جسدٍ منهم يقف من خلفه كيان مُظلم أشد سواداً مما حوله، لا يرونهم، لا يشعروا بوجودهم، فقط تتحرك تلك الكيانات ضخمة البنية لتضع كفوفها الدخانية السوداء على أكتافهم، وكأنهم هُلام لا يُرَوُا.

تتراقص شعلة المصباح، يعبث بها الهواء المثلج الذي يهب عليهم من اللامكان ليصيبهم بالقشعريرة، ضوء النار ينخفض تدريجياً تاركاً خلفه غيمة الظلام التي تغلفهم، تقترب الكيانات المظلمة أكثر لتلتصق بأجسادهم من الخلف في جهالة منهم، تنحني الكيانات معاً للأمام بوجههم الدخانية عديمة الملامح، ينفثوا الهواء الأسود من أفواههم بغتة لينطفئ المصباح.

لحظات تمر عليهم جالسين، صامتين كالأصنام، قد تملك الرعب من قلوبهم التي تنبض باضطراب، لا زالت تلك الكيانات تقف خلفهم في شموخ كشواهد القبور، واضعين كفوفهم على الأكتاف.

يستطرد "بيتر" بهمسٍ يكاد يُسمَع:

- أشعُر بثِقَل غريب علي كتفي.

يجيبه الصمت المطبق من الباقين، ليتسائل بتوجس:

- هل أصبحت بمفردي هنا؟

تردف "روشال":

- وأنا أيضاً أشعر بذلك.

تنطق "إيما" بنبرة متلعثمة وقد بدأ الرعب يتسلل داخل جوفها:

- يبدو أننا جميعاً نعاني ذات الشعور.

يُضئ اللوح المعدني بغتة أمام أعينهم ليتقافزوا وجلين في مقاعدهم، ينظروا إلى بعضهم البعض لعل أحدهم يملُك تفسيراً لما يحدث، ولكن علامات البلاهة تظهر جلية على وجوههم، يحدقوا باللوح الفضي الذي يزداد ضوئه، تنبعث الأشعة من تلك الرموز المنحوتة أعلى سطحه، تدور الرمال السوداء القابعة أعلاه في شكل مخروطي لتنكشف من الفراغ في الوسط تلك العين البيضاء ذات الحدقة الداكنة، تشهق "روشال" بفزع مما ترأه بأم عينيها، بينما يينظر الجميع ناحية "إيما" الساكنة دون اهتمام.

تقابلهم الأخيرة بنظراتها مردفة:

- لقد رأيناها من قبل.. الأهم ما هو بعد ذلك.

ثم تلقي ببصرها تجاه "كلير" لتتفهم الأخيرة ما ترمي إليه، تتذكر أولى المرات لهما سوياً منذ أعوام انقضت.

يتابعوا ارتفاع العين لأعلى حتى توقفت الرمال عن الحراك وثبتت الحدقة الداكنة محدقة نحو الفراغ في الأُفُق، الكيانات تقف خلفهم في ثبات كما هي، بدأت أجسادهم تتداعى، أمست أقل حجماً مما كانت عليه، بعضهم سمين والآخر هزيل يميل إلى القِصَر.

تخرج بغتة من أطراف المقاعد تلك الأغلال الشوكية لتقيد كفوفهم وأرجلهم في قسوة تتألم لها حناجرهم، يُصدموا مما يجري لهم دون القدرة على الهرب من تلك الأغلال، لتنتشلهم همهمات الكيانات من شرودهم، أصواتهم كأنها حناجر تصرخ من الجحيم، بعيدة واهنة تخرج من المقابر، خشنة، حثيثهم يصم الآذان:

- نحن من نولنا العذاب المُقيم على أيدي مُربيكم.. لقد مُزِقَت أرواحنا ألماً وخيفة دون رحمة.. رحلنا عن هذه الحياة القاسية بقلوبٍ أعماها السواد.. الكُره.. القسوة مما ذقناه.

والآن.. حان وقت أن تذوقوا سوءة ما أقبل عليه بني جنسكم.

مالكي دمائكم.

للرب أعين كثيرة.. تراقب.. تحفظ ما يجري تحت وطأتها.. ترحم.. وأخرى تُذيق العذاب المُقيم..

وها قد أتى دورها..!

تصمت الكيانات بغتة ولا يزال الآخرين يشعروا بذات الثِقَل، تلك الهمهمات سقطت على قلوبهم كجمرٍ ناري، لُتضئ العين بغتة ناثرة الضوء الساطع الذي يعمي أبصارهم، يحاولوا التملص من ذاك السطوع المؤلم، لحظات تمر عليهم كالدهور وهم يصرخوا ألماً:

- آآآآآآآآآآآآآآآآه.

حتى أسدل الظلام سِتارُه.

***

"كلير فوجان"

ينفرج جفنيها مُحدقة بألم، جسدها مُلقى على وجهه أعلى فراش بالي تكسوه الملاءات البيضاء، وجهها قابعاً داخل أحضان وسادة قطنية تحجب أنفاسها المضطربة، تحاول الاعتدال من وضعيتها المؤلمة هذه، أنفاسها تتلاحق دون هواء يُنعِش رئتيها اللتين تجاهدا في ألم، صدرها يعلو ويهبط دون هوادة، تشعر بثِقَل رهيب داخل عظامها يمنعها من تغيير وضعيتها ولو بطرف رأسها لتشهق بضع نسمات الهواء، تحرك كفيها يمينا ويسارا في صعوبة بالغة، تتلمس ثنايا جسدها الخلفي، ظهرها، مؤخرتها، هذا الجسد لم تملكه يوماً، لطالما كانت تتمتع بنضارة فائقة، عودِها الممشوق، خفيفة الوزن كريشة تتطايرها الرياح، أما عن هذا الجُثمان الذي تسكنه روحها الآن فهو ليس لها، ولا تدري عنه شيئاً.

تُحدق بعينيها شاخصة في المحيط من حولها، غرفة صغيرة بالية، جدرانها يغطيها طلاء كان يوماً ما أبيض ليعبث به الزمن ويتحول لذلك الإصفرار المقيت، رائحة عرق تفرز من غُددها ثقيلة، تكاد تتقيأ من أثر هذه الأنفاس الحامضية، رغم هذا إلا أنه لا يهُم كيف أتت إلى هنا، وأي جسد هذا الذي تسكنه؟ بل تسعى لأن تنال قِسطاً من الهواء يُعين رئتيها على التحمل لبُرهة حتى تدرك ما يجري لها.

تُدير جسدها في شتى الإتجاهات محاولة قلب وضعيتها من أسفل لأعلى، تحاول عدة مرات دون جدوى، حتى في المرة الأخيرة بعد أن كادت تفقد الأمل في النجاة تُلقي بجسدها السمين يميناً ليترنح ثم ينقلب إلى الاتجاه الآخر موجهاً رأسها لأعلى، فور أن اعتدلت لتشهق نسمات الهواء والعبق العطنة بالغرفة، تقبل رئتيها هذه الرائحة على مضض لكنها لا تزال تشعر بالاختناق، كأن هناك من يضغط على فمها وأنفها بكفه مانعاً الهواء أن ينساب من خلالهما، ليصدمها مشهد تلك الممرضة الواقفة قُبالتها أمام باب الغرفة تبتسم لها.

لا تعرفها.. لم ترها من قبل.. لكن هناك حدس ما يحثها على أنها على صِلةٍ ما بها، تلك الممرضة في عقدها الرابع، ترتدي زيها الأبيض المعتاد، شعرها المجعد المكشوف من على الجانبين أسفل غطاء رأسها.

تستعين بها "كلير" راجية وهي تختنق:

- سا.. ساعديني!

***

"وصلت إلى غرفة ذاك العجوز لتقف أمام القضبان الحديدية تنظر له بعين خاوية.. ليقابلها الأخير بعينيه الغائرة مستنجداً بعصبية تصعق أطراف جسده.. تضع يدها في إحدى جيوبها لتخرج سلسلة من المفاتيح تبحث فيها

عن الخاص بغرفته.. تجده بعد لحظات لتضعه بالمقبض مديرة إياه فينفرج الباب الثقيل مخرجاً أزيزه العالي.. تتقدم "كرستين" خطوتين داخل الغرفة لتقف قُبالة كومة اللحم الملقاة ناظرة لأسفل بشذر..".

***

تقف الأخيرة دون حراك مستندة على الجدار المقابل لها، تبتسم بطرف شفتيها في غلٍ يظهر جلي في عينيها الناظرتين بغضب، بينما تختنق "كلير" شاعرة بألمٍ سحيق في أطرافها، تشعر بتصلبهم كأنهم يجفوا كعظام الموتى، ليزيد عذابها بانقضاء الهواء من حولها حتى أمست الغرفة كقبر يخنق أنفاسها، ترفع كفها بصعوبة مستجدية بتلك الواقفة كما الأصنام، لقد تحولت الرؤية إلى ضبابية من حولها، صدرها يعلو ويهبط ببطئٍ شديد، لم تعد قادرة على التحمل، وكأنها غارقة أسفل محيط يضع ثِقله على صدرها، تهبط كفها بهوادة، يتوقف صدرها عن الخفوق، تحدق عينيها تجاه الممرضة في فزع فاغرة فاهها في صمت.

***

"روبرت جون"

يفتح عينيه بجفونٍ مرتجفة بعد أن عم السكون من حوله، يجد نفسه مُلقى على أرضية خرسانية خشنة، جواره فراشاً بالي مُهترئ، يبدو أنه واجه الكثير من المتاعب هذه الليلة بالنظر لحالة ملاءاته العبثية، يدور ببصره في المحيط من حوله ليجد نفسه داخل غرفة ضيقة ذات ألوان صفراء قاتمة تخضب جدرانها الأربعة، لا يذكر أنه كان هنا من قبل، جل ما يذكره أنه كان مقيداً بأغلال شوكية، همهمات تصرخ بأذنيه، ضوء ساطع يعمي بصره، ليفتح جفونه المُسبلة ويجده بتلك الوضعية الغريبة وهذا المكان الكئيب، يحاول الاعتدال من رقدته، جسده الممتلئ يأبى الانصياع لأوامره، ينظر ملياً إلى هيئته الرثة وذاك الجثمان الغريب الذي يقبع داخله.

أنى له بهذه البدانة؟

أين ذهب جسده الفارع.. منكبيه العريضين؟

ماذا يحدث بحق السماء؟!

ينتشله من دهشته ذاك الرجل الأربعيني الأنيق الذي يقترب بخطواته البطيئة من باب الغرفة، يدلف من خلفه ذاك التمرجي في زيه المعتاد دافعاً بكفيه أمامه جهازاً معدنياً متوسط الحجم ذو مؤشرات يدركها جيداً، تقترب تلك الممرضة الرفيعة ذات الشعر المجعد ووجهها الذي

زارته التجاعيد من الباب لتدلُف بضع خطوات للداخل، حتى أصبحت أعلى رأسه بجوار الجهاز الكهربي.

***

"- لكن ربما لن تفلح في تهدئته يا دكتور.

يجيبها الركتور "مايكل" مستنكراً:

- ألديكِ حل أفضل الآن؟!

يجيبه صمتها مطرقة برأسها لأسفل ليأمرها بدوره:

- إذاً تحركي.. ليس لدي الليل بأكمله.

يمسك التمرجي "ويلسون" من أسفل إبطيه لتساعده "كرستين" برفع قدميه البدينتين ولكنهما يلهثا بقوة.. يحاولا مرات متتالية بكل عزمهما ولكن تبوء محاولاتهما بالفشل.. هذا الهرم يحمل أرطالاً لا تعد من اللحم.

لينهي الدكتور "مايكل" معاناتهما متأففاً بضيق:

- لا يهم الآن.. تجاهلا إلقاءه على الفراش وابدآ في تركيب الجهاز فيما يناسب وضعيته هذه.."

***

يحاول "روبرت" التملص منهم، يشد على عضده قابضاً كفيه بقوة، تلك الشحوم بجسده تُضعِف من عزيمته، لا يقدر على مجابهة كفي التمرجي شديدتا البأس، ليربط

أطرافه بحزامٍ جلدي سميك ثم يفرغ بعض السائل اللزج من الزجاجة على جانبي رأسه، يقوم من فوره بوضع تلك القبعة المعدنية مُثبتاً أطرافها بإحكام.

يشخص "روبرت" ببصره تجاه تلك الممرضة الواقفة من خلفه واضعة أصابعها على قابس التشغيل، تنساب دمعة حارة على وجنتيه محركاً رأسه في توسل ألا يقوموا بما هم مقُبلين عليه، لكن فمه يأبى أن يُخرج تلك الكلمات الراجية، لتُدير الأخيرة القابس معلناً نوره الأخضر، تسري الصعقات داخل جسده لينتفض بقوة لنصف دقيقة، يصرخ بألمٍ سحيق، مسام جسده تفرز عرقاً غزيراً، كأنه لوحاً ثلجياً يذوب أسفل أشعة الشمس الحارقة، لتنتهي تلك الصعقات ويتوقف جسده عن الانتفاض.

يلهث بقوة، قلبه يكاد يقفز خارج جوفه، ينظر إليه ذاك الرجل مبتسماً بكرهٍ عاتٍ، يخرج صوته الأجش المرعب آمراً:

- مجدداً.. على المستوى الأخير!

تنصاع الممرضة المبتسمة بتشفي لأوامره مُديرة المقبض بأصابعها نحو الدرجة القصوى من الصعقات، تضغط على القابس ليُنير بالأحمر، تسري الكهرباء بأوصاله لا يقدر على تحملها، لحظات الألم تمر كأنها عذاب مقيم، ينتفض جسده كحبات رمال تبعثرها الرياح العاتية، يشعر أن جلد رأسه

يحترق، يذوب، لتكتمل سيمفونية عذابه بينما لا يحرك حدقيته الشاخصتين عن الرجل الباسم قُبالته، دمعات حارة تسقط من عيني "روبرت" مُعبرة عن ألمٍ حقيقي.

حتى هدأت أوصاله بغتة، يتوقف جسده عن الارتعاش، أنفاسه أسفرت عن انقضائها، تتساقط قطرات الدماء من جانبي رأسه أسفل القبعة الكهربية، ساكناً.

***

"بيتر جاك"

يجلس على مقعده كما هو، الأغلال الشوكية تلتف على أطرافة مُقيدة إياها بإحكام، البهو المظلم من حوله، مثلما أغلق عينيه لفترة قاربت على النصف ساعة يفتحهما ليجد نفسه بذات المكان، لكن هذه المرة وحيداً، لا أثر للباقين، الطاولة التي كانت أمامه، اللوح المعدني، المصباح الزيتي، رفاقه، كل شيء اختفى وكأنه أتى من العدم، يحاول فك وثاقه محركاً معصميه في توتر لتنغرس إحدى الأشواك الحادة داخل جلده ناثرة بضع قطرات من الدماء جعلته يتأوه في صمت، محاولاً كبح صراخه الذي قد يودي بحياته، يحاول مراراً تحريك أطرافه في تؤدة ولكن تلك الأغلال تحكم قبضتها، يفقد الأمل في فك أسرِه ليميل برأسه إلى الوراء محدقاً في الأفُق المظلم.

لحظات متتالية تمر عليه دون حراك، لا يدري ما هو مُقبِل عليه، إلى متى سيظل مُقيداً هكذا داخل مشفى لعين..

يسُب حاله في سرِه، يندب حظه الذي أوقعه في مثل هذه الظروف، بل إنه ليس بحظٍ أبداً، إنه المقصود بعينه، كيف له أن يدفع جزية فعلة لم يقم بها.

هل خُلِق لسد دين الآخرين.. أي قانونٍ هذا؟!

ينتشله من تساؤلاته المُعذِبة لروحه صوت خطوات ثقيلة تزحف في بطء تجاهه، يعود ببصره محدقاً في الفراغ من

حوله، يسمع وقع ذلك الزحف يقترب منه ليردف متوجساً:

- من هناك.. من هناك؟

يجيبه الصمت سوى من وقع تلك الأقدام، حتى ظهر ذلك المصباح الزيتي أمامه على بُعد خطواتٍ قليلةٍ منه، وهو أيضاً!!

يرى نفسه مُقيداً بإحكام كما هو حاله الآن، يمعن النظر عندما يزداد المصباح وهجاً ليكشف عن مرآة ضخمة ذات حواف معدنية مضيئة، كما اللوح ذاته، تحمل النقوش المنحوتة الغامضة على جوانبها، في وسطها يقبع "بيتر" بجسده الهزيل وهيئته الرثة، من خلفه تقف تلك الكيانات الدخانية ضخمة البنية، سوداء قاحلة لا معالم لها، تقف في ثباتٍ كالأصنام المتحجرة، أحدهما يمسك بالمصباح الزيتي، ينظر "بيتر" حوله يحاول إيجادهم لكن الظلام يغلف محيطه ليعود بنظره إلى المرآة مشدوهاً.

يشخص ببصره في شبيهه الذي ينظر له بعينين يحملن مُقتاً كريهاً، ترتسم شبح ابتسامة على شفتيه تثير الفزع في قلب "بيتر"، يفتح شبيهه فمه ببطء كاشفاً عن ظلامٍ دامس مخرجاً لسانه منه، ليجد الأخير بدوره فمه ينفرج دون إرادته، يحاول منع نفسه لكنه لا يقوى، هناك قوة خفية تتحكم به رغماً عنه، يكمل نظراته الشاخصة في شبيهه ليجد أحد تلك الكيانات يقترب ليقف ملتصقاً به، يضع

كفه الدخانية داخل ردائه الأسود مخرجاً سكيناً حاداً يلمع، يرفع إياه لأعلى ليضعه على لسان شبيهه، يخرج "بيتر" برعب عندما تدلى لسانه خارج فمه، ينظر حوله متوجساً في اضطراب، يبحث عن تلك الكيانات، السكين الذي سيوضع على لسانه، لكن يظل الظلام رفيقه المخلص.

***

"يقاطعه "إدوارد" بصوته الرخيم:

- اهدأ.. لا تكن مستسلماً هكذا.. فأنا لم أنتوي تحويلها للتحقيق مثلما ادعيت.

ينصدم "مايكل" مما يسمعه خارجاً من ثغر الأخير، ليدفعه الفضول مستنكراً:

- إذاً.. لماذا أخبرتها بهذا.. لقد كنت تثور غضباً منذ دقائق انقضت؟!

يرد "إدوارد" بسؤالٍ بلاغي يزيد من تعجب الأخير:

- وهل وجب علي أن أبلغها بمثل هذا القرار وأنا أحمل لها باقة من الزهور؟

"مايكل" وقد عصف الاندهاش بعقله:

- ماذا؟!

"إدوارد" يبتسم بطرف فمه مسترسلاً:

- لو لم أدعي الغضب أمام تلك العجوز الشمطاء لما اقتنعت أبداً أنني أقف جنباً بجنب في صفها.. وربما كان ذلك سيضعني في دائرة الشك من قِبل معاوني الذين أتيا معي.

"مايكل" وعلامات التساؤل تنتشر على قسمات وجهه:

- أنا لا أفهم شيئاً البتة..".

***

ترتجف أوصاله يتصبب عرقاً، يلهث في إضطراب ليجد الكيان الجهنمي يحرك السكين على لسان شبيهه ممزقاً إياه ببطء قاتل، يتمزق لسان "بيتر" بدوره في الفراغ دون اقتراب أي شيء منه ناثراً الدماء على وجهه، يصرخ في ألمٍ مُبرِح، يشخص ببصره في الأخير الذي لا يزال يبتسم له دون أي تأثير لما يجري معه، لتتحشرج حنجرة "بيتر" من الصراخ المتألم لا تقوى على مجاراته.

الألم لا يُطاق، تنتفض أطرافه بعنف، الدماء تسقط منهمرة على ذقنه ورداءه، ينقطع لسانه نهائياً ثم يُلقى في المرآة أرضاً، يحدق في لسانه الذي أمسى قطعة لحمٍ نيئ عَفِنة لا تقربها حتى الجرذان، يرفع رأسه لأعلى مهملاً شبيهه الذي يضحك بسخرية بحنجرة عميقة، يتألم كما لم يعهد من قبل، مغمضاً عينيه وهي تزرف الدموع منها، يناجي ربه أن يرحمه مما هو فيه.

"روشال ديفيد"

تقبع أعلى فراشٍ صغير داخل غرفة ضيقة ذات جدران مقشرة، تشعر بهُزال يقتحم جسدها الواهن منذ أن فتحت عينيها في هذا المكان الكئيب، تعتدل من رقدتها في ثِقَل لا يتناسب مع رعونتها وربيع صحتها، تنظر إلى نفسها لتجدها ترتدي عباءة بيضاء لا تدري عنها شيئاً، تتحسس ثنايا جسدها الممشوق لتجده هزيلاً، تسحب عباءتها للخارج لتحدق داخلها مُقابلة ذلك الجلد السمين المتدلي، ثديها النافر لطالما حسدته صديقاتها والتهمه الرجال بأنظارهم في نهم، الآن هو كتلة لحمٍ بالية، بقايا جسد أكل عليه الزمان وشرب.

تنظر حولها، الغرفة فارغة سوى من فراشها والمقعد الخشبي العتيق قابعاً جوار الحائط و..

هذه المرآة التي تتوسط الحائط لتغطي معظمه، ضخمة لا تنتمي لهذه الغرفة الفقيرة، تحمل رونقاً خاصاً، سطحها الأملس الواضح يوحي أن العُمر لم ينل منها بعد، حوافها الأربعة المعدنية تلمع كاللآلئ، تتحرك "روشال" بدورها من على الفراش سائرة خطوتين لتقف أمام المرآة مصعوقة!

تشخص ببصرها في هيئتها الرثة التي هي عليها الآن، وجهها المنكمش، تجاعيد مزدحمة تكاد تخفي معالمها، شعرها المسترسل على كتفيها وقد كساه الشيب، عينيها

الغائرتين كالأموات، ذلك الجثمان النحيف المائل للقِصَر، لا تصدق ما تراه بأم عينيها، ترفع كفيها متأملة إياهما، عظام جافة يغطيها جلد منكمش كأنه خرج للتو من الماء بعد أن قبع لساعات، تتلمس بأصابعها وجهها في فزع، من أين لها بهذا العجز وهي بالكاد تعبر عامها الخامس والعشرين، ترتجف بوجل عندما دار مقبض الباب لينفرج معلناً تلك الممرضة البالغة عقدها الخامس في زيها التمريضي.

تنظر لها متسائلة:

- لماذا أنتِ مستيقظة لهذه الساعة يا "كادي"؟

تحدق "روشال" تجاهها مستنكرة، لتردف:

- "كادي"؟!

***

"العجوز مكملة بقلق بادي على صوتها:

- لما فعلته بالصباح.

تتحرك "ماكفي" تجاه المقعد المقابل للفراش لتسحبه بالقرب منها، تجلس عليه راخية جسدها، لتنطق ببسمة لا مبالية:

- تقصدين تحويلي إلى التحقيق.. لا عليكِ.. أنتِ لم تخطئي.

العجوز مكملة برعب:

- أنا حقاً لم أنتوي هذا لكِ أبداَ.

تقاطعها "ماكفي" ناظرة لها بحنو:

- أعلم هذا.. في الأخير أنا من أخطأت بقسوتي معكِ.. وعلي أن أتقبل جزاء سوءتي.

"كادي" هامسة بقلق:

- إذاً.. لن تعاقبينني على إفشائي فعلتك؟."..

***

تتجاهلها الممرضة لتدلف داخل الغرفة جاذبة "روشال" من معصمها برفق، ساحبة إياها نحو الفراش مسترسلة:

- هيا.. عليكِ أن تنالِ قِسطاً من الراحة.

تنصاع "روشال" لحديثها سائرة نحو الفراش لترقد أعلاه وهي لا تزال محاولة استيعاب ما يحدث، تدور التساؤلات داخل عقلها متوالية دون هوادة..

من هي "كادي"؟

لماذا تشعر بالأُلفة تجاه هذه الممرضة؟

وبالأحرى كيف وصلت إلى هنا؟

تغطيها الممرضة بالملاءة البيضاء مُعدلة من وضعية

الوسادة أسفل رأسها، في حين تحدق "روشال" ناحيتها مُردفة:

- ماذا يجري؟

تنظر لها الممرضة باستغراب متسائلة:

- معذرةً.. ماذا قُلتِ؟

تستطرد "روشال":

- كيف أتيت إلى هُنا؟

تجيبها الأخيرة مبتسمة بهدوء:

- بالطبع تعلمين كيف أتيتِ إلى هُنا.. يبدو أنكِ مُتعبة من أحداث الصباح.

تتساءل "روشال" باهتمام:

- ماذا حدث في الصباح؟

تردف الممرضة مازحة بابتسامة:

- لا داعي لطريقتكِ هذه.. إنني أُسامحكِ.

لم تستطرد "روشال" حديثها إلا ووجدت تلك الوسادة القابعة أسفل رأسها تنسحب بعنف لتوضع فوق وجهها خِلسة بين طرفة عين وأخرى، لتضغط عليها الممرضة بكفتيها القويتين حابسة أنفاس العجوز الواهنة، تحاول بدورها نزع تلك الوسادة بكفيها الضعيفين، تنتفض أطرافها

بقوة، تضطرب أنفاسها ليعلو صدرها ويهبط في سرعة بالغة، ترى السواد القاتم أسفل الوسادة، الهواء لا يصل لرئتيها، تختنق سريعاً، لا تساعدها محاولاتها البائسة على الفرار مما هي فيه.

لا تزال الممرضة تضغط أكثر فأكثر حاملة ابتسامتها الهادئة والعينين المحدقتين، حتى هدأت انتفاضات المسكينة لتُعلِن هزيمتها.

***

"إيما واطسن"

لا تزال تصرخ بكل ما أُتيت من قوة، تحاول قدر الإمكان أن تُغلِق جفنيها حانية رأسها لأسفل، الضوء الساطع من تلك العين يعمي بصرها حتى كاد يخترق جفنيها في قسوة، تتشنج أعصابها مُقيدة في مقعدها، إلى أن عم الصمت، ومن ورائه أظلم البهو كعود ثقابٍ احترق.

تهدأ من رجفتها محاولة التقاط أنفاسها المتلاحقة في انتظام، تنتظر أن تأتي غارة أخرى من هذا الضوء ليخيب ظنها في الأخير، تفتح رموشها المطبقة مترددة بهدوء لتُلقي ببصرها على ما جرى بعد كل هذا الصراخ الممتزج بالنحيب منها، لتقابلها الصدمة التالية.

تجلس كما هي على مقعدها، إحدى كفيها مُقيداً بالأغلال في حافة المقعد، بينما الأخرى قابضة على أحد التماثيل على جوانب اللوح المعدني، الطاولة الخشبية يعلوها اللوح وجانبه المصباح الزيتي المشتعل.

ولكن..

***

"تخرج مغلقة الباب من خلفها تاركة ثلاثتهم في صمتهم المطبق، يتحرك "مايكل" قرب الطاولة ليجلس بجانب "ماريتشا"، بينما تجلس "كرستين" في الناحية الأخرى

منها، ينتظر الأخير في صمته متأملاً اختياره لتلك النزيلة "سيرا تشايس" فهي الأجدر والأحق بهذه التجربة، ليس لها من أهل يسألون عن حالها، قادمة من طرقات الشوارع، عجوز لا تدري..".

***

ولكن اختفى الباقين من حولها، يحضر مكانهم ثلاثة كيانات مظلمة لا ملامح لها، قبع قُبالتها على المقاعد، ليهُم كيان آخر من العدم واقفاً خلفها مما أجبرها على الانتفاض فزعاً، تحدق فيهم وأنفاسها تتلاحق، قلبها يتواثب داخل جوفها، قطرات العرق الغزيرة تجتاح جبينها، تحدق في يدها القابضة على التمثال لتجدها عجوز، مُجعدة، نحيفة تغشاها العروق البارزة، تحاول فك قبضتها ولكن تظل ثابتة كما هي، وكأن تلك اليد لا تتصل بجسدها.

يخرجها من صدمتها ذاك الصوت النابع من حنجرة الكيان الواقف بشموخ خلفها، نبرته ثقيلة، هامسة كفحيح الأفاعي:

- لقد حان الوقت.. أنتم مُقبلون على الولوج داخل هذا الجسد الفانِ..

يبدأ في ترديد بضع كلمات مُبهمة لا تُدركها "إيما"، لا تفطن أي لغة تلك التي ينطقها، تُلقي ببصرها على الرمال السوداء التي بدأت بالدوران داخل اللوح، تظهر من وسطها

العين المحدقة بارزة لأعلى، لا يزال الكيان يهمهم بكلماته إلى أن توقفت الرمال عن الحراك.

يصمت بدوره بينما "إيما" لا تقوى على الثبات بعد كل ما حدث، الكيانات الجالسة تحدق فيها، دخانية هي لا معالم لوجهها، لكن في قرارة نفسها تشعر أنهم يبتسمون لها، لتتحرك الحدقة السوداء بالعين مائلة بهدوء تجاهها، تراقبها الأخيرة متوجسة، تلهث باضطراب، حتى ثبُتت الحدقة شاخصة فيها، يصرخ الكيان بصوتٍ تهتز له جدران المشفى:

- إنها لكم.. أذيقوها!

تنهض الكيانات الثلاث من جلستها، طوال القامة تكاد لا ترى رؤوسهم في الأفق، تحدق فيهم بفزع لينحنوا بغتة في وجهها صارخة:

- آآآآآآآآه.

فور أن فغرت فاهها ليدلفوا كسراب دخان تباعاً، تشعر مع ولوجهم أن روحها تحترق، حُمم نارية تغتصب جوفها، ألم سحيق يقضي عليها، تنظر إلى كفها القابضة على التمثال لتجدها تتخذ لوناً أسوداً قاتماً، وجهها يُخرج دخاناً ليذوب تدريجياً، تصرخ، تبكي، تنتفض في انسحاق، جسدها يحترق من الداخل إلى الخارج، تدلف الكيانات وراء بعضها لتخرج من عظام ظهرها، وكأنها تهشمها بمطرقة حديدية،

تشخص "إيما" ببصرها في الأفق وحنجرتها تأبى الصريخ بعد أن تمزقت أحبالها الصوتية، مُقلتيها يذوبا سائلين على وجهها.

ليسوُّد الكون من حولها وترقد ساكنة.

***

يصحو جميعاً من ثباتهم شاهقين كالغرقى، يلهثوا باضطراب، أنفاسهم تتهدج وجلين، شاخصين ببصرهم في بعضهم البعض فاغرين فاههم بصمتٍ مُطبق، كُلاً منهم يُلقي ببصره على الآخرين غير مصدق ما يراه بأُم عينه، زاعمين أنهم لا يزالون معتقلين داخل عوالمهم الغامضة التي وجدوا أنفسهم مُلقين فيها بين طرفة جِفن وتاليتها.

تستطرد "كلير" بصوتٍ واهن مُتهدج:

- من.. من أنتم؟

ينظر إليها الباقين وجلين من هيئتها العجوز، ليستطرد "بيتر" شاخصاً ببصره تجاهها:

- بل من أنتِ؟

تنظر له مُردِفة في وجَل:

- أنا.. "كلير".

تُقابلها "روشال" صارخة بحنجرتها الواهنة:

- مااااااذا؟!

يشخص "روبرت" بدوره دون النطق ببنت شفهة وكأنه غائب عن الوعي، لتحدق فيهم "إيما" مردفة بنبرتها التي رغم الفزع المُقيم القابع بجوفها إلا أنها لا زالت واثقة الحديث:

- نحنُ كما كُنا منذ قليل.. أو على الأرجح منذ أعوامٍ انقضت علينا جالسين بهذه المقاعد.

يتجه "روبرت" ببصره ناحيتها متسائلاً باستنكار من خلف عويناته الطبية:

- ماذا تعنين؟

تردف الأخيرة:

- انظر إلى حالك في المرآة.. تبدو كأنك على أعتاب الرَمَق الأخير من عُمرك.. كما نحن جميعاً.

يُحرك "روبرت" كفيه في هوان، يقلبهما محدقاً فيهما، عظاماً بارزة تغطيها طبقة جلدية خفيفة مُجعدة تخشاها عروقه المنتفخة، يتابعه الآخرين في رُعب حقيقي مما آلت إليه ليلتهم القاحلة تلك، مندهشين من الأغلال الشوكية التي اختفت تاركة أطرافهم حُرة وكأنها لم تكن موجودة من قبل، لا أثر للخدوش التي تركتها على معاصمهم.

ترفع "روشال" كفيها تتلمس ثنايا وجهها الذي أمسى خشناً

يوحي بأعوامٍ عِجاف مرت عليه، تجذب خصلات شعرها المسترسل ناصع البياض، عقوداً ثقيلة مرت على جلستهم وهم يعانون كلاً منهم على حِدة داخل كابوسه الخاص به، ليستيقظوا جميعاً أرواحهم الشابة تقبع بجوف أجساد بالية، مُهترئة، عجوز زارها الشيب والوهن، ملابسهم أمست واسعة عليهم إثر نحافتهم المفرطة.

تنطق "إيما" مُخرجة كلماتها الخافتة من حنجرتها العجوز:

- لم يكتفي اللوح بأن يُذيقنا آلام ضحايا أجدادنا لنرحل بعدها في سلامٍ عن هذا العالم المقيت.. بل قرر أن نُكمل أيامنا المتبقية نتجرع مرارة هزيمتنا، الضعف داخل هذه الأجساد..

حتى نقضي نحبنا..

وهو لأشد العذاب.

يصمت الجميع بعد أن أنصتوا إلي حديثها المنهزم، لا يجدون ما يتفوهون به، لقد تملك الحُزن والألم من قلوبهم حتى ثَقُلت ألسنتهم، راضين بما وصلوا إليه، ليتحركوا من جلستهم في وهن، بالكاد تحملهم عظام أقدامهم العاجزة ليسيروا بخُطى متأنية في البهو المظلم تجاه باب المشفى، ينفرج أمامهم قبل أن يقتربوا منه بخطواتٍ قليلة مُعلناً من خلفه شروق فجرٍ جديد، كاشفاً أطلال الحديقة الجافة ليدلفوا إلى الخارج تباعاً.

يخطو "بيتر" لتستوقفه نظرته العابرة على الباب الخشبي للمشفى بعد أن اختفى الآخر، المعدني ذو النقوش الغامضة بالأمس، تقف من خلفه "روشال" متسائلة بقلق من تحديقه الصامت:

- ماذا هناك؟

يردف بدوره:

- الباب!

تنظر إلى الباب متأملة لتعيد سؤالها:

- ماذا به؟

يستطرد الأخير:

- لقد كان.. لا عليكِ.

يقطع حديثه تاركاً إياه مكملاً خطواته إلى الخارج لينغلق الباب من خلفهم بهدوء مُخرجاً أزيزه الثقيل، يسيروا بخطواتهم المتباطئة حتى دلفوا من البوابة الحديدية الصدئة للمشفى، يقفوا جميعاً ناظرين تجاه البناية المتهالكة في أسى، يشعروا بحالة ذلك المشفى المهجور كما أرواحهم التي مر عليها دهراً من الزمان، هاجس ما بخاطرهم يحثهم على إخراج خطاباتهم ليضعوا أيديهم في جيوب ستراتهم قابضين عليها، تتحول الأوراق البيضاء إلى رمادٍ محترق تتناثره الرياح، لينظروا إلى بعضهم البعض مُكملين سيرهم

في صمت.

***

داخل البناية كان ضوء الصباح يتسلل من زجاج النوافذ المُهشمة، كاشفاً البهو الفسيح، الطاولة التي يقبع أعلاها اللوح المعدني ذاته وجواره المصباح الزيتي المنطفئ، ينحسر الضوء الباهت ليسدل الظلام سِتاره من جديد في تؤدة حتى أمسى البهو أسوداً كاحلاً، يشتعل فتيل المصباح كاشفاً الطاولة التي تحيطها المقاعد الشاغرة، تدور الرمال السوداء لتنفرج العين من منتصفها بارزة إلى أعلى، تتوقف الرمال عن الطواف تاركة الحدقة الداكنة تشخص في الأفق..

لتتحرك بغتة.

تمت

شُكراً

لا أملك كلماتٍ كافية لأسترسل في الثناء عليكِ، فلقد أفقدتني هذه الرواية مخزوني، لذا أرجو أن تتفهمي أنكِ كُنتِ ولا تزالين صاحبة الفضل عليَّ بعد الله عز وجل، دومًا آمنتِ بي في كل خطواتي الطائشة، حتى وصلتُ إلى هنا.

إليكِ يا "أمي"